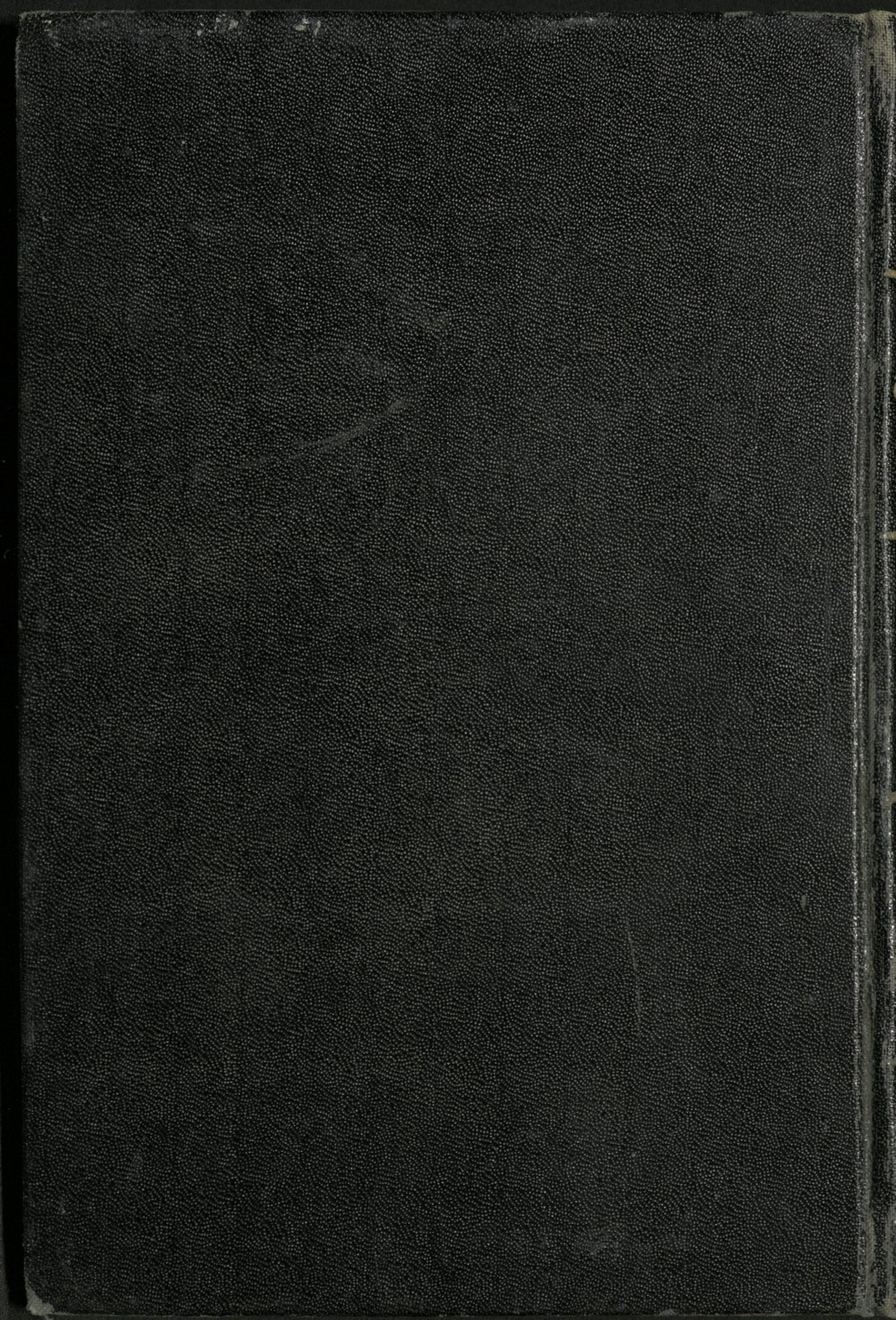
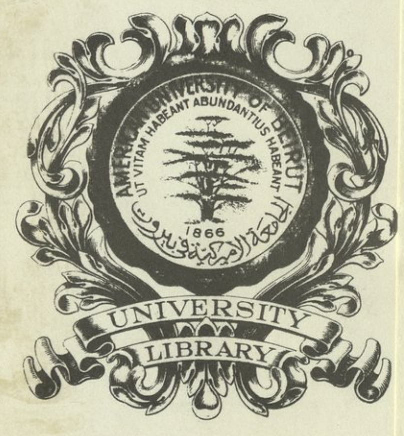
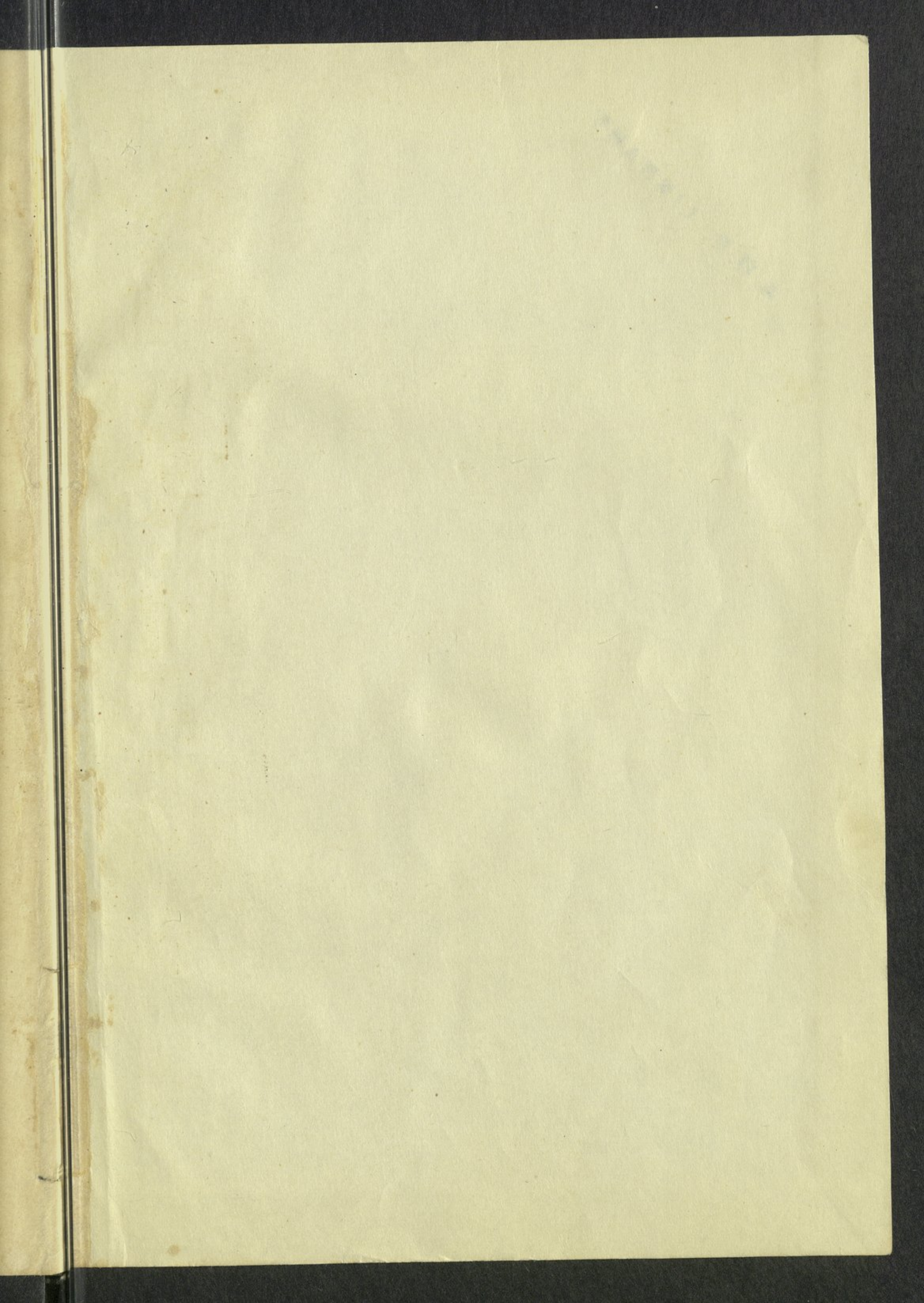



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الأميركية في بيروت
UNIVERSITY
LIBRARY



« تابع » كتب توفيق الحكيم

التى نشرت بالعربية

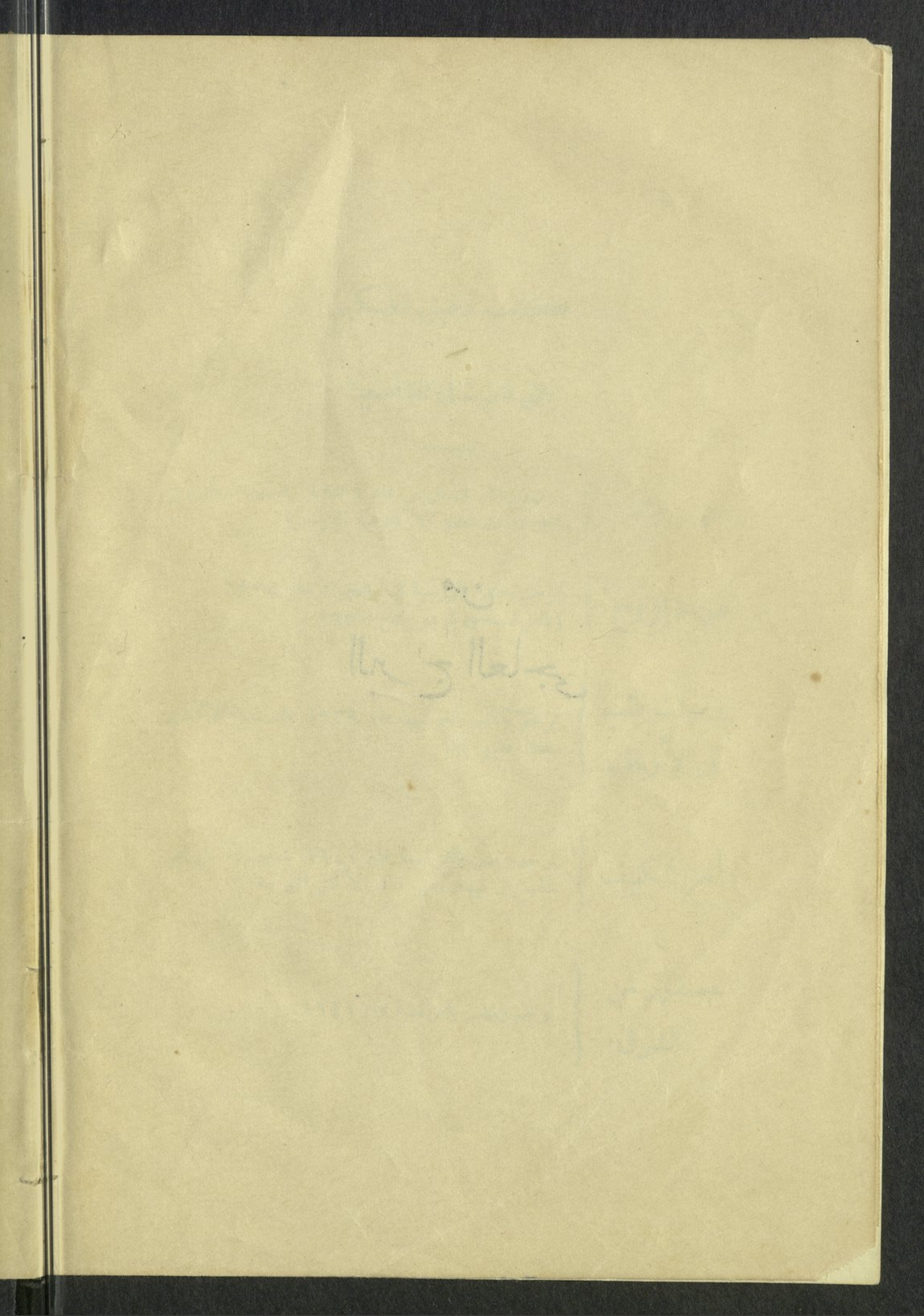
كتب توفيق الحكيم

التى نشرت فى لغة أجنبية

شهرزاد	ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الاكاديمية الفرنسية .
عودة الروح	ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧
يوميات نائب فى الأرياف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ بمقدمة للدكتور حافظ عفيفى باشا
أهل الكهف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية
عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

من

البرج العاجى



١

ما أطول حديثنا الصامت فى برجنا العاجى .

هذا البرج الذى يحرسه «تنين» الوحدة . وما أكثر

تلك الخواطر التى تمر برؤوسنا أحيانا كالطيور العابرة

دون أن نقتنص منها شيئا . هنا داخل هذا الأطار

وبين هذا السياج سأحبس ما يقع منها تحت

ذاكرتى . وان خواطرى لكثيرة . لأن أوقات
عزلتى طويلة . وليس لى علم بلعب النرد وغيره من
وسائل قتل الوقت . فالوقت عندى هو الذى يقتلنى
لأنى لا أعرف كيف أقتله . ولقد حاولوا كثيراً
فى صباى أن يعلمونى تلك الالعاب التى تلهى الناس
عن أنفسهم فى أوقات الفراغ . ولكنى كنت
أنسى دائما فى المساء ما علمونى اياه فى الصباح . ولم
ينفع فى أمرى تعليم ولا تفهيم . وخرجت من
عهود الصبا دون أن أحذق لعبة أو احجية . شىء
واحد كان يلهينى ويسرنى . وقد كان عندى بمثابة
النرد والأحاجى . ذلك هو الجدل حول فكرة من
الأفكار . ولكم أتعبت كثيرا من أولئك الذين

كانوا يلعبون معى هـذا الضرب من الشطرنج فى وقت من الأوقات . لقد كنت أضيع عليهم نهـارا بأكمله دون أن أتبرم . وإن رؤوسهم لتسكل فما أرحمهم وما أرحم نفسى . إن حب التفكير لنقمة . آه لو علم الناس كيف يعيش الأدباء ورجال الفكر . إذن فليعلموا أن القدر يوم دفع الأدباء الى الوجود صاح فيهم ساخرا : « اذهبوا فان لـكم الفكر ولكن . . . » ولم يتم كلامه وابتسم ابتسامة هى أبلغ من التعبير .

نعم . ما من أديب أو مفكر الا أدرك أخيرا بعد أن قطع شوطا من الحياة أن شيئا آخر ربما كان أجدى عليه من الفكر قد سلب منه إلى الأبد . إنا نحسد أحيانا بقيـة الناس . وانى لأتصور القدر

وهو يشيع الآخرين الى باب الوجود قائلا لهم :
« اذهبوا فان لكم الحياة . . . ولكن . . . »
أجل انه يبتسم لهم كذلك عين ابتسامته الساخرة .
ولكن هؤلاء الناس لا يفهمون قط أن القدر سلبهم
شيئا . وهنا الفرق بيننا وبين بقية الناس : اننا نحن
رجال الفكر ندرك تمام الادراك ما سرق منا وما
فقدنا . أما الآخرون فلا يعلمون . وهذا سر عذابنا
نحن .

والآن وقد تكشفت لنا حياتنا الفكرية عن برج
مرتفع لا خروج لنا منه . برج يملؤه السكون ولا نسمع
فيه غير صدى أصواتنا الضائعة . فلنتكلم اذن بين تلك
الجدران . فان رجع الصدى يؤنس على الاقل وحشتنا .



مضت أعوام عديدة على ذلك اليـوم الذى شعرت فيه بغتـة بدوار الصعود الفـكرى ، على أثر مطـالعات كثيرة وتأملات عميقـة فى عزلة طويلة .

وبدا ذلك على وجهى فسمعت طبيبـا يسـدى الىّ النصيحة أن أترك كل شىء وأذهب من فورى الى

البحر ، أستنشق الهواء وأغمض عينى بغير تفكير .
لقد كنت أحسب التأمل كل شىء فى حياة الأديب
وكنت أعتقد أن حياتى ستمضى قراءة كلها وتفكيرا
على ذلك النحو وبذلك المقدار . فكنت استهول
العاقبة وأتساءل عن النتيجة .

ومرت الأيام فاذا بى انصرف بعض الشىء عن
المطالعة والتأمل . واذا الأعوام تنفق فى شىء آخر
لم يكن فى الحساب . هو البحث عن الجسم الذى
تحل فيه تلك الأفكار الهائمة كالأرواح . هنا وضحت
لعينى المعضلة . وفهمت أن التفكير فى ذاته يسير ،
ولكن العسير هو أن أقيم « الفكرة » على قدميها
كائنا نابضا يتحرك ويسير . إن القليل من عمر الفنان

هو الذى يبذل فى التفكير الصرف ، والكثير منه هو الذى يذهب فى سبيل صنع ذلك اللحم والدم الذى ينبغى أن تسكنه الأفكار .

إن « الطبيعة » أستاذنا الأعظم نحن الأدباء والفنانين تفكر هى أيضا . غير انها لا تفكر « كلاما » . فهى تجهل « اللغات الحية » . ولكنها تفكر « مخلوقات حية » .

« تفكير » الطبيعة « اسلوب ». وان طريقتها الواحدة فى تركيب الكائنات جميعها ، من عالم الجراثيم الى عالم الأجرام ، لهى وحدها التى نقرأ منها تفكيرها .

«الخلاق» فى الفن أيضا لن يستحق هذا الاسم

حتى يصبح التفكير عنـده مماثلا لتفكير الطبيعة ، فيملك تلك القدرة السحرية أو الهبة السماوية ، التى بها يخرج أفكاره من رأسه تجرى لابسة أثواب الحياة .

كذلك خالقو الشعوب وبناة الحضارات ، كل عبقريتهم انهم لا يفكرون « كلاما » وان الأفكار والتأملات عندهم هم أيضا لا تكتب كما هى ولا تقال ، انما ترى قائمة متحركة فى صورة أمة ناهضة أو على شكل ثورة متفجرة .

ذلك معنى « الخلق » . وتلك هى « الأفكار » فى لغة كل خلاق .



طالما جلست فى صباى ساعات طويلة أتأمل قوافل النمل تسير على الحيطان . وكنت أحيانا أدنو منها وأصيح بأصوات مدوية . فما يبدو عليها أنها سمعت شيئا ، فالنظام هو النظام . والخطى هى الخطى . والتجارة الضخمة المحمولة على الاعناق ، وهى

جناح «صرصار» كبير ، ما زالت تتهـادى مطمئنة
فى طريقهـا الى عاصمة المملكة العتيـدة داخل ذلك
الثقب البارز فى أسفل الجدار . وكانت الجيوش قد
قاربت المدينـة . وخرجت جيوش أخرى تستقبل
القـادمين وتحمل عنهم بعض العبء . وكأن الجميع
فى فرح وحركة ولغط لا يصل صـداه الى مسامعى
الغليظة . كما أن أصواتى الراعدة لا تبلغ آذان تلك
المخلوقات الدقيقة . فحدثتنى النفس أن أحدث حدثا
فى تاريخ هذه «البشرية» الصغرى . فأتيت بكوب
من ماء وصببت ممـا فيه على القوافل الظافرة .
ولبثت أنظر الى الكارثة فى ابتسام . فاذا شمـل
الجيوش قـد تمزق واذا الذعر قـد دب فى الجموع .

ولكن الفلول سرعان ما عادت تلتئم ، وتحمل «التجارة»
من جديد فى حرص المستميت . عند ذاك أقصيت
الكوب وقد تحرك قلبي وقلت فى نفسى : ان هذه
المملكة ولا ريب تأخذ الآن عبثى على سبيل الجد .
وانها ولا شك تحسب ما حدث الساعة ظاهرة من
ظواهر الطبيعة القاسية . فما هذا عندها الا سيل
العرم أو طوفان هائل أو قضاء هبط من السماء .
وتأملت لحظة شأننا نحن « البشرية » الكبرى .
وقلت : من أدرانا أنا لسنا أحسن حالا من هذا
النمل ؟ ومن أدرانا أن ما نسميه ظواهر جوية
وطبيعية من زوابع وأمطار وقضاء وقدر ليس الا
عبث مخلوقات أخرى ذات أحجام وصفات لا

نستطيع لها تصورا ؟ ومن أدرانا أن ليست فى هذا الكون أصوات هيهات لآذاننا الصغيرة أن تدرك وجودها . لم لا نكون نحن أيضا نملا أرقى من هذا النمل ، وأحط من نمل آخر من جوهر آخر لا نعرف ما هو ؟ ان الله لأعظم مما نظن . وان حواسنا لأقل إدراكا لما فى هذا الكون مما نتخيل .

٤

من أحب المطالعات الى نفسى كتب العالم الرياضى «هنرى بوانكاريه» . عندى من مؤلفاته ثلاثة كتب : «العلم والطريقة» و «العلم والفرض» و «قيمة العلم» . قرأتها لأول مرة منذ عشر سنوات . وأعود اليها من حين الى حين . انها تسحرنى كما تسحر

الأطفال قصص ألف ليلة وليلة . فأنا الآن لا أقرأ كثيرا كتب الأدب . لأنى أنا نفسى أصنع كتبا فى الأدب . ولكنى أحب أن أصغى الى أولئك الذين يبحثون فى صمت عن الحقيقة . هؤلاء الذين عندهم ما يقولون ولكنهم يترفعون عن الكلام . لأن الحقيقة التى يحاولون أن يتصيدوا شبح خطاها خلف «المكرسكوبات» و «التلسكوبات» لأروع وأعظم من أن توضع فى ألفاظ وعبارات . على أن ما يعنينى من كلام هؤلاء العلماء ليس الأرقام والمعادلات أى «الوسائل» . ولا يعنينى كذلك ما وصلوا اليه من «نتائج» . ولكن الذى اقرأ من أجله هذه الكتب هو تلك الاشراقات الذهنية التى تلمع

من خلال بحوثهم ، فتضىء جانبا من جوانب الفكر المهجورة . ليس العلم فى ذاته هو الذى يهمنى ولكن هى « العقليـة العاميـة » فى مصادمتهـا ومواجهتهـا للأشياء . لا شيء يلذ لى مثل مجالسة «عالم» متسع الأفق . وهذا النعت لا ألقيه جزافا . فان من كبـار رجال العلم من هم ضيقو الأفق . أى سجناء معادلاتهم وأرقامهم ، يصلون بها مع ذلك الى نتائج باهرة فى صميم العلم . ولكنهم قلما ينظرون الى العالم الخارجى ، وأعمالهم قلما تعنى غير فئـة صغيرة من زملائهم العلماء . انما الطراز الذى أقصد ، هو طراز رجل العلم المطبوع الذى يخرج بعد ذلك لينظر بعين العلم وعقليـة العلم الى الكون بمعنـاه الواسع .

هى «فلسفة العلم» ما أريد ، لا العلم نفسه . هنا
بعد هذه القراءات يتضح لى أنا «رجل الأدب»
كيف أن مخلوقا آخر يسمى «رجل العلم» ينظر الى
ذات الأشياء التى أنظر اليها ويفكر فى هذا الكون
الذى افكر فيه ، ولكن بعين أخرى وعقل آخر .
ومن يدرى ؟ لعل أكثر هؤلاء العلماء الذين ننعتهم
باتساع الأفق هم أيضا لا يلذ لهم شىء مثل قراءة
الآداب ، ومجالسة «رجال الأدب» . وهو الواقع .
فما الأمر فى باطنه الا شوق وحب استطلاع بين
نوعين مختلفين من هذا الحيوان المفكر .

٥

أمس خرجت من برجى العاجى إلى البرج الدائر . والبرج الدائر هو مرصد حلوان . دعانى إلى زيارته مديره . وهيأ لى المنظار الكبير مسددا إلى القمر . فذهبت يدفعنى الشوق إلى استجلاء سر هذا الكوكب الجميل ، الذى نظم فيه شعراء الأرض

نصف شعرهم ، ودان له عشاق الأرض بنصف هنائهم . ورفعت عينى إلى تلك العين الذهبية التى طالما رعت بنورها نصف حياتنا ، وسهرت على مسراتنا ، وسكنت من أحزاننا . نظرت ، وإذا أنا أتراجع أسفاً وألماً . لا أحب أن أصف ما رأيت . ولكنى أحب أن أسجد لله شكرا إذ جعل لنا عيونا لا تبصر إلا بمقدار . إن كل الجمال المحيط بنا إنما هو من صنع عيوننا القاصرة . والويل لنا إذا أبصرت أعيننا الآدمية أكثر مما ينبغى لها أن تبصر .

ذلك شأن القمر باعث الجمال على الأرض .

كذلك شأن الشمس باعثة الحياة على الأرض . إنها تشرف علينا من مكان معين بمقدار . فاذا اقتربت

منا أنملة هلكنا حرقاً ، وإذا ابتعدت عنا أنملة متنـا برداً . إن يد الحـكمة الأزلية قد وضعتها فى الموضع الذى لا بد لها فيه من أن ترسل إلينا الدفء والخير والسلام .

ما أدق هندسـة الكون ! اللهم إنى أعود إلى برجى وأنا شديد الأيمان بك ، قريب الفهم لك ، مدرك بعض الادراك لمشيئتك فى خلق الانسان ، مطمئن كل الاطمئنـان إلى مراميك فى إنشـاء حواسنا الآدمية على هذا الضعف . إن ما اعتدنا أن نسميه ضعفـاً وقصوراً فى إدراكنا حقيقة الأشياء ليس إلا السياج الذى يحمى سعادتنا البشـرية . فاذا خرجنـا عن نطاق هذا السياج فقـد انقلبنا مخلوقات

أخرى لا تتصل بالأرض ولا بجمالها ولا بمشاعرها . مخلوقات ليست آدميـة ، فقـــــد ترى غير ما يرى الآدميون . وقد ترى أبعد مما يرون . ولكنها لن تكون من أجل ذلك أسعد ولا أسمى ولا أنبل .

اللهم إنك مع قصورنا قد صنعتنا على خير حال ومع جهلنا قد هيأت لنا أحسن مآل .

٦

كان إبسن يقول : « الرجل القوى هو الرجل الوحيد » . كان ايمانى شديدا بهذه الكلمة . وما برحت أرى فيها دستورى الذى لا ينبغى أن أحيد عنه ، فانا كلما انطويت على نفسى واعتصمت ببرجها اعطتنى كل ما أريد من قوة ومنعة . وكلما التمست

ذلك عند الناس أو عند اصحاب الجاه والسلطان شعرت انهم أضعف من أن يستطيعوا لمثلى خيرا أو شرا . فليست قوتى المنشودة فى القابهم ولا فى ثرائهم انما هى فى شىء ليس فى مقدور أحد أن يمنحنيه غير نفسى . فالدولة لا تستطيع ولن تستطيع ان تخفض أو ترفع من قدرى وقيمتى فى نظر الزمن والتاريخ . وهنا كل منعتى . فانا اذن لا احتاج الى الدولة فى شىء لأنها لا تستطيع ان تمنعنى أو تمنحنى شيئا ذا أثر فى كيانى الحقيق .

إن التاج الذى يوضع فوق جبينى ليس فى مقدور يد صنعه غير يدى . ولا جواهر تزينه غير الجواهر المستخرجة من كنوز نفسى .

٧

البرج العاجى عند أكثر الناس معناه اعتصام الكاتب بالسحب اعتصاما يقصيه عن أحداث الدنيا وحقائق الوجود ، وهذا غير صحيح . على الأقل بالنسبة إلىّ . فما من حدث استوجب تحرك القلم الا حرك قلمى . وما من أمر هز البشرية الا هز نفسى

بل ما من قضية من قضايا الحيـاة الكبرى التى تمس
الانسـان وتطوره وتقـدمه الا شغلتنى ودفعتنى الى
الجهر بالرأى حتى فى النظم السيـاسية والاقتصادية
والاجتماعية . دون التفـات الى عواقب الرأى الحر
والنقد المر . فما بالى أشهد تلميحا بين آن وآن من
رجال الاصلاح الى هذا البرج العاجى كأنه وكر قصى
يسكنه طـائر منفرد لا يريد أن يحط علي جيفة من
جيف الأرض . وا أسفاه ! كان بودى أن أكون
هـذا الطائر . ولكن العصر الحديث لا تمتنع عليـه
الابراج والأوكار ، فان أزيز آلاته ودوى صيحاته
قـد أفسد سكون الأعالى على المفكرين والأطيار .
لا يوجد اليـوم الـكاتب الذى لا يغمس قلمه فى وحل

البشر . لأن القلم اليوم عصا فى يد الأنسانية بهـا تسير . لا مرود نكحل به عينيها . حبـذا لو كان صنع الجمال كل مهمتنا . لقد كانت خير رسـالة للقلم الارتفاع بالانسان على « براق » الفكر الى حيث ينسى فى لحظـة أو لحظـات أنه من تراب الأرض خلق . ولكن الناس طلبوا إلى القلم مطالب وسخروه فى مآرب وجذبوه إلى طينهم يتكئون عليه كلما خافوا الانزلاق . وكان لهم ما أرادوا . ونزلت من الأبراج أفواج الكتاب ينخرطون فى سـلك الأحزاب . متوزعين فى ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع . مخدوعين بما يقال لهم من أن مراكز القيـادة مكانهم ، والله أعلم ان كانوا فى هذا المكان

وضعوا أو أنهم حشروا مع العبيد والمسخرين . قليل جدا من الكتاب فى مصر والشرق من يستطيع حقا ان يقود ولا يقاد . اولئك هم الذين يقودون من « ابراجهم العاجية » كما يقود الربان السفينة من برجه الزجاجى المرتفع ، دون ان يغمره هرج النوتية أو يعمى بصره بخار الآلات . القيادة الحقيقية ينبغى ان تكون مرتفعة كالرأس فى جسم الانسان . وان تكون منفصلة عن بقية الجسم إلا من بعض شرايين واعصاب تنقل الأفكار من البرج الى الأطراف .

ما من رأس يقع مع الأعضاء فى صعيد واحد الا رأس المخمور . ذلك الذى يسقط منتشيا بخمر المطامع الأرضية ، صريعا بكأس الشهوات المادية .

ما أكثر الاقـلام التى خدمت الأحزاب والنظم . بل ما أ كثر الاقلام التى خدمت الاصلاح نفسه ... ولكنها كانت تعلم وهى تفعل ذلك ويعلم عنهـا الجميع انها قبل كل شيء انما كانت تخدم انفسها وجيوبها ومآربها .

البرج العاجى هو الزم ما يلزم للقادة الروحيين . والبرج العاجى الذى اقصده هو السمو عن المطـامع المـادية والمآرب الشخصية . البرج العـاجى الذى اريده لنفسى ولغيرى من الكتاب هو الوحدة . الوحدة بمعـانيها العليـا العظيمة : أى الاستقـلال والحرية والكمال .

الرجل الوحيـد البعيـد عن تقلبـات الأهواء

المرتفع عن مصطخب الأنواء . الكامل بنفسه . المكمل للآخرين . « البرج العاجى الخلقى » هو ما اريد . لا البرج العاجى الفكرى . ليس من حق مفكر اليوم أن ينأى بفكره عن معضلات زمانه . ولكن من واجبه أن ينأى بخلقه عن مباذل عصره وسقطاته . لأن أول خطوة للقائد الروحى هى نحو : « المثل الأعلى » واول صور المثل الأعلى هو : « المثل الخلقى » . واول من يبرزه القائد نموذجا للمثل الخلقى هو : شخصه .

« البرج العاجى » عندى هو الصفاء الفكرى والنقاء الخلقى . وهو الصخرة التى ينبغى أن يعيش فوقها الكاتب مرتفعا عن بحر الدنايا الذى يغمر أهل عصره .

لا خير عنـدى للمفكر الذى لا يعطى من شخصـه مثلا لـكل شىء نبيل رفيع جميل .

لا يدخلن فى الروع أنى أطلب الى الـكاتب حبس نفسه فلا يختلط قط بالناس . فليختلط ما شـاء بأجناس البشر كافة . لكن على نحو اختلاط الأنبياء الذين يأكلون فى الأسواق ويشاركون الناس كل مافى الحياة الا الصغائر والآثام . فالـكاتب قد يكون دائما بين النـاس وهو مع ذلك فى برج عاجى مرتفع . البرج العاجى المرتفع ليس سوى نفسه البيضاء التى ترتفع عن الدنس . انه مع النـاس فى التراب بجسمه لا بنفسه . انه يقاسمهم كل شىء الا ضعفهم الخلقى والفكرى . انه مع الناس ليفهمهم ويرحمهم ويصورهم

ثم ليرشدهم وليكون لهم القدوة والنبراس . اذا فعل الكتاب ذلك فى كل عصر لكان للبشرية شأن غير هذا الشأن .

إن مثلا واحداً انفع للناس من عشر مجلدات . لأن الأحياء لا تصدق الا المثل الحى . لهذا كان النبى الواحد بمثله الخلقى الحى وجهاده واستشهاده فى سبيل الخير أهدى للبشرية من آلاف الكتاب الذين ملأوا بالفضائل والحكم بطـــون المجلدات . إن أكثر الناس يستطيعون الكلام عن المثل العليا ولا يستطيعون أن يعيشوها . لهذا كان الأنبياء قليلين وكانت حياتهم إعجازا . فالى البرج العاجى أيها الكتاب . البرج العاجى بما فيه من صفاء فكرى

ونقـاء خلقى . ذلك البرج الذى أحاول أن أجده
فى الوحدة . الوحدة المعنوية . أى الاستقـلال
والكمال والحرية !!

٨

نفسي بطبيعتها لا تنزع إلى ترف الحياة . ولقد عشت إلى وقت قريب ضالا . ليس لى بيت مستقر ولا راحة موفورة . ولا حتى مكتبة خاصة تعيننى على عملى الأدبى . إلى أن أوهمنى بعض الناس أن مكانتى كأديب تقتضى أن أغير هذه الحياة .

فأصغيت إلى هذا الكلام واتخذت لى مسكناً أنيقاً
فى أجمل بقاع القاهرة يشرف على النيل . واقتنيت
سيارة جميلة ، وجعلت لى مكتبة تزينها التحف
والتماثيل . وأكثرت من حولى الخدم يعنون
بأمرى . وأعجبنى قليلا مظهرى هذا الذى يماثل
مظهر أدباء أوروبا المشاهير . وغرنى الحال . وحسبت
أننا نتمتع فى الشرق بمثل ما يتمتعون من قوة وحرية
ومنعة . فانطلق قلمى مرة يبدى رأيا صريحا فى
مسألة قيل إنها تمس السياسة . وإذا أنا أقع فريسة
لاجراءات مهينة ، فالتفت يميناً وشمالا أبحث عن
عالم الأدب يتولى الدفاع ، لا عنى ، بل عن حرية
الفكر المهدرة . فلم أجد أحداً من الأدباء قد

تحرك . ولم أر صحيفة قد همهـا الأمر . وخرست كل تلك الجرائد التى طالما رفعت صوتى على صفحاتها واتفق الكل اتفـاقا طبيعياً على إهمال الموضوع . ولم يحفل أصـدقائى ولا زملائى ولا قرائى بمـا حدث لى . ولم يدركوا الخطر الذى يهدد الأدب والأدباء إذا هم شعروا يوماً أنهم لا يستطيعون أن يخرجوا ما فى نفوسهم .

على أن الحادث فى جملته قد هز عقيدتى فى منزلة الأدب . وفجعنى لا فى شخصى ، ولكن فى مركز الأديب فى الشرق ، فقد أيقنت أن ما يسمونه « المكانة الأدبية » إنمـا هى وهم من الأوهام . وأن الأدباء أنفسهم هم المسئولون فى أكثر الأحوال عن

انخفاض شأنهم فى المجتمع لخذل بعضهم بعضا .

وأحسست من نفسى الذلة ، فتركت سكنى وسيارتى وخدمى ، وعدت من جديد أعيش شريداً ، كما يستحق أديب فى الشرق أن يعيش .

٩

ليس على الأرض أخطر ولا أقوى من آدمى
يعيش من أجل فكرة . هـذا الآدمى الذى يركز
كل وجوده فى فكرة كما تتركز أشعـة الشمس فى
عدسة ، ليستطيع أن يحدث مثلها حريقاً مخيفاً أونوراً
وهاجاً ساطعاً . إن أغلب الأنبياء والرسـل وقادة

الفكر وعظماء التاريخ الذين قلبوا العالم أو ملئوه ضوء وجمالا كانوا كذلك : أشعة متجمعة فى عدسة فكرة . إنهم لم يعيشوا للحب والحياة ، إنما عاشوا من أجل فكرة .

ذاك خاطر مر برأسى فى لحظة من اللحظات . ولست أدرى أأنا مصيب فيه أم أنه عزاء جميل أدخله على نفسى كلما ذكرت وأيقنت أنى أنا أيضاً آدمى لم يخلق كى يعيش للحب والحياة . لماذا أعطى دائماً الفكرة ثمناً أغلى من حياتى ، دون أن أشعر ودون أن أريد ؟ آه . . . لو أتيح لى أن أعيش حياتى كما أحب ، ولو سمح لى أن أقدر الحياة كما يقدرها السعداء من الآدميين ! لقد منحنى الله من أسباب

النعيم ما لم يتيسر مثله للكثيرين ، فلم أبسم ولم أسعد ؛ فقد عافت نفسى مائدتى المنمقة وسيارتى اللامعة ومسكنى الرحب . آه . . . إن أجمل أفكارى ما ظهرت إلا أثناء سيرى البطىء على الأقدام . وإن ألذ أكلة عندى هى ما اقتصرت على لون واحد من الطعام . وإن خير مسكن لى هو حجرة واحدة أضع فيها كل ما يربطنى بالوجود من كتب وورق وفراش وثياب . لقد صحت يوماً من أعماق نفسى : « اللهم أتم نعمتك علىّ وجردنى من كل هذا النعيم الذى لا أفهمه ، واملأ قلبي بحب نورك وحده ، فبه تزهر كل فضائلي الآدمية كما يزهر النبت تحت الشمس الحارة البارة ! » وكان لى ما أردت ، وانقطعت للفكر

وتجردت . ولكن . . .

لكن هل كل من تجرد من حياته فى سبيل الفكر ينظمه الزمن فى سلك العظماء ؟ لست أظن . وهنا الكارثة . هنالك رجال خلعوا رداء الحياة دون أن يلبسوا الفكر ثوباً وضاء . أولئك هم التعساء فى الدارين . أخشى أن يكون قد كتب علىّ مصير هؤلاء ! .

١٠

الرأى الصريح الحر قوة ينبغى ألا تخلو منها أمة من الأمم الآخذة بأسباب الحضارة . ووجود هذا الرأى ألزم من وجود البرلمانات فى ضمان العدالة والحد من طغيان السلطات ، لأن هذا الرأى لا يتطرق اليه عادة ذلك الفساد الذى يشوب اعمال

النظم السياسية والاجتماعية ، فهو صادر عن قلب حار نبيل قد ارتفع عن دنيا الأغراض والمجاملات .

على أن المشكلة هى دائما : كيف نعثر على هذا الرأى ؟ قد نستطيع أن نعثر على العنقاء ، ولكننا لن نستطيع أن نظفر فى كل زمان بصاحب الرأى الحر الصريح . لماذا ؟ لأن هذا المخلوق ينبغى أن يكون مركباً تركيباً مخالفاً لتركيب أغلب البشر . فلا بد أن يكون قد عرف كيف يستغنى عن الناس ، وأن يكون قد وطن نفسه على أن يمضى فى طريقه دون أن يعبأ بسهام الناس التى أصابت جسده . وألا يكون له عند أحد حاجة ولا مطمع . وأن يكون محباً للوحدة معتاداً العزلة ، قانعاً من الدنيا بأبسط متاع

وأقل مؤونة . ذلك أن أول خطوة فى هذا الطريق الوعر يصادفها صـــاحب الرأى الحر ، هى فقد الأصدقاء والأعوان . ثم يلى ذلك تألب الجميع عليه ، لأنه لم يرض أحداً ولم يمالىء فريقا ولم يعتصم بجاه جهة من الجهات ، ولم يستظل بقوة من القوى . إنه وحده منبع كل شىء . وهو بمفرده الواقف فى وجه جميع القوى متضافرة . إنه قد ينهزم وقد يتحطم وينهدم تحت ضربات الجميع ، ولكن راية الرأى الحر تبقى خفاقة فى الهواء عالية مرفوعة فى يده الميتة .

حبذا لو كان لى هذا المصير العظيم ! لقد أتاحت لى الظروف أن أطلق رأيى ذات يوم حراً فى بعض الأمور فأحسست فى الحال أنى فقدت كل

سند من كل جهة من الجهات ، ولم يعد لى صديق .
ولم يبق حولى سوى عيون نارية تنتظر ساعة
الانقضاض علىّ والفتك بى . غير أن كل هذا لم
يزعجنى . فلقد شعرت فى عين الوقت أن فى يدى
شيئاً يخفق عالياً ، أدركت أنه هو وحده الباقى .

١١

القوة الحقيقيـة للرجل هى أن يستطيع أن :
« يقول ما يريد وقتما يريد أن يقـول » . والرجولة
الحقيقية هى أن يبذل المرء دمه وماله وراحته وهناءه
ودعته وطمأنينته وأهله وعياله وكل أثير عنده وعزيز
عليه فى سبيل شىء واحد : « الكرامة » . والكرامة

الحقيقية هى أن يضع الانسان نفسه الأخير فى كفة وفكرته ورأيه فى كفة ، حتى إذا ما أرادت الظروف وزن ما فى الكفتين رجحت فى الحال كفة رأيه وفكره . كل عظماء التاريخ كانوا كذلك . بل إن مصر الفقيرة اليوم فى العظماء قد عرفت ذات يوم رجالا من هذا الطراز . رجال لم يترددوا فى تضحية كل شىء من أجل فكرة ، والنزول عن كل متاع من أجل رأى . بمثل هؤلاء الرجال ربحت مصر كثيراً فى حياتها المعنوية والفكرية . بل إنى لا أبالغ إذا قلت إن الأمم لا تبنى ولا تقوم إلا على أكتاف هؤلاء . وإن الخطر المخيف هو يوم تخلو أمة من أمثال هؤلاء . نعم . وإنه ليخالجنى الآن

شىء من القلق إذ أنظر حولى فلا أكاد أرى فى مصر أثراً لهذه الفئة العظيمة . فناموس اليوم هو وطء الفكرة بالأقدام ركضاً خلف الجاه الزائف والمال الزائل ، وإنكار الرأى والجبن عن إعلانه حرصاً على الراحة وإيثاراً للطمأنينة . وهكذا قد خلت صفحة تاريخنا من أسماء العظماء هذه السنوات وعجت بلادنا بأصحاب الألقاب وحملة الشارات وراكبى السيارات ! وحق لنا جميعاً أن نسأل هذا السؤال : ما هى المعجزة التى تنهض هذا البلد وهو على هذا الخلق ؟ ! وهل يطول غضب الله علينا فلا يظفرنا بعظيم من هؤلاء العظماء الذين يستطيعون أن يردوا الاعتبار إلى قيمة الرأى ، ويطهروا النفوس

من درن المادة ، ويعيدوا المثل العليا النبيلة إلى مجدها القديم ، ويرتفعوا بالأمة كلها فى لحظة إلى سماء الخلق العظيم ! إذا حدث ذلك فقد نجونا . وإذا لم يحدث ذلك فلا شىء ينتظرنا غير انحلال أكيد ، وهبوط إلى مرتبة العبيد .

١٢

في طفولتي ظاهرة عجيبة لم استطع لها حتى اليوم تعليلا طبيا . لقد كنت أصاب من فوري بحمى تلزمني الفراش أكثر من أربعة أيام كلما وقع بصري على جنازة مارة في الطريق . وقد لبثت على هذه الحال ثلاث سنوات ، من الثالثة حتى السادسة .

وكان أهلى يعرفون ذلك عنى . فكانوا يحرصون كل الحرص على ان يجنبـونى منظر الجنـازات . وانى لأذكر يوما كنت مع جدتى فى مركبة عائدة بنا من السوق إلى البيت . وكنت فى أحسن صحة وأتم سرور . وإذا جنازة تعبر شارعا بعيداً ، أبصرتها عين جدتى ، فبادرت إلى الحوذى راجية هامسة ان يحيد بمركبته عن ذلك الشارع سريعا . وحسبت المسكينة انها افلحت تلك المرة فى انقاذى من الحمى . ولكنها شعرت برعدتى . فالتفتت الىّ . فاذا وجهى الشاحب يتصبب عرقا . فأدركت انى لمحت الجنازة ساعة لمحتها هى . وان الحمى سرت فى جسمى وانتهى الأمر . ما العلاقة بين ذلك المرض الجثمانى والخوف

من منظر الموت ؟ لم يبحث أحد هذه المسألة .
فلقد كانوا يكتفون باستدعاء الطبيب فيعالج الحمى
بعلاجها المألوف حتى أبرأ منها . ولم يخطر على بال
احد ان يسأل هذا السؤال الذى القيه على نفسى
اليوم ؟ أترى الموت كان يريد انتزاعى من الحياة ؟
أتراها قصة « ملك الجن » التى رواها « جوته » فى
إحدى قصائده الرائعة : لقد حكى ان طفلا تعلق
بصدر أبيه ليحميه من ملك الجن الذى يغريه بروائع
الهدايا واللعب والأزهار كى يذهب اليه ويمضى معه .
ولكن الأب حسب كلام ابنه عبث أطفال فلم يأخذ
الأمر على سبيل الجد ، حتى رأى ابنه يسقط من
بين ذراعيه وقد فارق الحياة .

أترى الأطفال فى صفائهم الملائكى يحسون ويسمعون وقع اقدام ملك الموت ؟ اذكر فى طفولتى ايضا حدثا غريبا وقع لعمة لى طفلة كانت تكبرنى إذ ذاك بعامين . لقد كنا نلعب فى رهط من الأطفال كل يوم . وكانت لعبتنا واحدة لا تتغير . لأن هـذه العمة الطفلة هى التى كانت تصـر على تكرار هذه اللعبة بعينها : كانت تقع على الأرض ممثلة دور المريضة ثم تصنع كأنها تموت . وانى لأذكر ان قلبى كان ينقبض انقباضا شديدا لهذه اللعبة وكان صدرى يضيق بها طول يومى . إلى ان رحلنـا وفارقنا عمتى الطفلة : فما كاد يمضى عام حتى قالوا لى انها ماتت .

تلك امثلة ناطقة على الصـلة الخفية بين الروح

والجسد . إنى فيما وقع لى ، أعتقد انى كنت محلا
لصراع عنيف بين قوتين : قوة الموت أى الحرية
المطلقة فى فضاء اللانهاية ، وقوة الحياة أى
الحبس داخل جسم حى محدود . هاتان القوتان
كانتا تتنازعان وجودى . وكانت الحرب بينهما سجالا .
على أن الجسم كان يتخاذل منهوكا محموما فى ميدان
ذلك الصراع الخفى كلما ظهرت له قوة الموت أو
الحرية فى صورة محسوسة ، كالجنازة ، تستطيع
حواسه المادية أن تشعر بها وتفزع منها . ومضت
أيام الطفولة . وأسدل العقل ستاره الصفيق على
صفاء الروح . فلم تعد تسمع خطوات ملك الموت .
وشفيت من الحمى . ولم يبق من أثر لتلك الحرب

الضـروس غير ذلك المظهر المعنوى الحالى للعراك القـائم فى نفسى بين الحرية الروحية والفكرية وبين ذلك الجسم المقيد بأغـلال نواميسه وبيئته وحدوده الأرضية .

١٣

انى حر . انى حر حرية تكاد تخرجنى أحيانا
من نطاق النوع البشرى . انى حر من قيود
الأسرة والتبعة . حر من أغلال الزمان والمكان ،
اتنقل فيهما بفكرى . وقد استطيع اذا شئت التنقل
فيهما بجسمى . حر فى النظر الى الأشياء ، فلم تعم

بصرى عقيدة من العقائد ولا مبدأ من المبادىء . حر المزاج فلم تستعبدنى هواية من الهوايات ولا مكيف من المكيفات ولا عادة من العادات . حر العقل ، حر القلب ، حر الجسم . انى فى وحدتى وحريتى أكاد أشبه لا آدميا من الآدميين ، بل فقاعة انطلقت من كأس أو فكرة شردت عن كتاب . لكنى مع الأسف ، على الرغم من كل ذلك ، آدمى حى . لى عقل يجب أن يفكر داخل إطار إنسانى محدود . ولى قلب يجب أن يمتلىء بعاطفة من العواطف . ولى جسم يجب أن يخضع لقوانين الحياة فى الأجسام . وهنا سر عذابى ومنبع شقائى . إن حياتى حتى اليوم لا تريد أن

تكون شيئا غير ذلك الصراع الدائم الهائل بين روح الحرية المطلقة وبين نواميس كيانى الآدمى . إن ذلك التمرد على هذه النواميس ، الذى بدأ عندى منذ الطفولة ، ما زال حتى الساعة قائما . لقد رفضت الطفولة وانا طفل . فكانت لى أحيانا مظاهر الشيوخ . ورفضت الخضوع لأحكام الزمن . فكنت أعيش أحيانا الحاضر فى المستقبل وأعيش المستقبل فى الحاضر . واختلطت بذلك علاقتى بالزمن وارتبكت صلاتى بالناس والأشياء . وحدتى كانت هى حصنى ، اعتصم بها كلما أحسست أن أزمة توشك أن تعود من أزمات تلك الحرب الضروس بين الحرية والنواميس . انى يوم صورت

« شهريار » فى قصتى « شهر زاد » لم يخطر لى على بال انى أصور نفسى . شهريار مع ذلك كان أوفر حظا منى . فقد كانت الى جانبه شهر زاد تجاهد جهاد الجبابرة كى تصلح فى طبيعته الخلل ، وتعيد التوازن الانسانى الى كيانه المضطرب . ليست لى شهر زاد . انى وحيد . لقد تحررت وتجردت حتى من الرفيق والشفيق . انى اتألم أحيانا آلاما لا يعرفها الآدميون . وليست هنالك عين تستطيع أن ترى هذه الآلام . فان وجهى الذى يبدو للناس هو من سوء طالعى قناع كأقنعة التمثيل عند اليونان . بارد الملامح ، أبله القسمات ، جامد النظرات ، لا يثير فى الناس شيئا غير الفتور . وهو يخفى عنهم

دائما ذلك الوجه الآخر الحقيقى الذى لم يره قط بشر .
انا ايضا استطيع ان اقول كما قالت الآلهة «ايزيس» :
قناعى لم يكشفه بعد إنسان ! حتى عينى التى تذرف
العبرات ليست هى العين الظاهرة . ليس بينى وبين
العالم الظاهر صلة . ان درجة احتمالى الألم النفسى
بلغت حداً مروعاً ، واتخذت صورة قد تهول الناس
لو اطلعوا عليها . ربما كنت قد تحررت أيضا من
الألم . ولكن آه . . . أيها الناس . . . أيها الناس ...
بى رغبة أن أصيح أحيانا صيحة أمزق بها الفضاء :
إنى سجين « حريتى » ! إنى سجين « حريتى » ! ..

١٤

فى ورقة منفصلة بين مخلفات « بتهوفن »
وجدت هذه الأسطر الدامعة : « الحب ، ليس غير
الحب ، هو وحده الذى يستطيع أن يجعل حياتك
سعيدة ، آه يا آلهى ، دعنى أجدها أخيرا ، تلك التى
فى مقدورها أن تدعم فضائلى ، تلك التى قد سمح

لى أن تكون زوجتى » .

ومات بتهوفن ولم يسمح له . أترى الطبيعة عدو الفنان ؟ تضن عليه بما تمنحه الآخرين .

نعم . انها لتقسو عليه وانها لتغار منه أحيانا وتقول له فى لغتها الصامتة البليغة :

— أنت تطلب الىّ أنا أن أمنحك الحب ؟ لا ، انى أمنحه كل الناس الا أنت . انى أمنحه أولئك المساكين الذين لا يستطيعون أن يخلقوا شيئا أما أنت فتستطيع أنت نفسك أن تخلق « الحب » . انك مثلى عبقرية خالقة . كل عملك فى هذا الوجود أن تصنع « الحب » وتمنحه الناس .

وهكذا تتخلى الطبيعة غالبا عن الفنانين العظام ،

وتتركهم يبحثون سدى عن السعادة فلا يجدونها كما يجدها الآخرون ملقاة كالفاكهة الناضجة ساقطة تحت الأشجار . انما هى لهم شىء بعيد . كلما مدوا اليه أيديهم ابتعد عنهم وتركهم يائسين . عندئذ ينكبون طول حياتهم على كنوز نفوسهم وحدائقها اليانعة يستخرجون منها للناس فاكهة من ذهب وفضة ، تقصر الطبيعة أحيانا عن تقديم مثلها . ولكن الطبيعة تنظر الى الفنان نظرة التشفى مع بسمة السخرية .

— أفهمتنى الآن ، وعلمت أن كلينا يعيش فى الحرمان ، وأن سر وجودنا أن نعطى ولا نأخذ . ؟؟

فيقول لها الفنان فى نبرة ألم :

— نعم ، ولكنك أنت الطبيعة . أما أنا فآدمى مسكين . انك لا تتـألمين أما أنا فأتألم . إذ أرى الحيـاة تزول من تحت قـدمى ٠ ولم يسمح لى بحظ قليل من الهناء الذى يسخى به على الآدميين !

— الآدميين ؟ ومن قال انك منهم ! عند ما وضع على منـكبيك رداء « العبقرية والخلود » خلع عنك فى الحال بعض خصائص الآدميين !

١٥

« هتلر » ذلك الرجل الذى يعيش وحيداً قويا لا يعرف المرأة ولا يذوق اللحم ولا الخمر ولا يفكر إلا فى السيطرة على العالم وقيادة البشر ، ذلك الرجل الذى لو خرجت من بين شفتيه كلمة رقيقة على مائدة السياسة الخضراء لتغير وجه التاريخ . قد شاء القدر

أن يجلس أخيرا إلى مائدة غداء فى مونيخ ، منفرداً مع كوكب لامع من كواكب الغناء ، وقد خرجت من بين شفتيه هذه الكلمات :

— إن صوتك لصاف صفاء البلور النقى !

فقالت المغنية الجميلة فى ابتسامة ساحرة :

— شكراً

فقال المستشار :

— أنا الذى ينبغى له أن يشكرك

فقالت الغانية فى شىء من العجب :

— على ماذا ؟

— على مجرد وجودك فى الدنيا ، لا أكثر ولا أقل !

***

قرأت خبر ما تقدم فى إحدى المجلات الأوربية وقد ختمت المجلة الخبر بقولها : « وقد سافرت المغنية بعد ذلك إلى باريس ، فأراد هتلر أن يضع طائرته تحت تصرفها . أتراه قد وقع فى الغرام ؟ أى خلاص للبشرية إذا قنع هتلر منذ الآن بمكان رحب بالقرب من المرأة ! »

وأحب أن أعلق أنا علي هذا الخبر بقولى : أترى المرأة تنتقم دائماً من ذلك العظيم الذى قضى حياته فى البعد عنها وكرس جهوده لغير التفكير فيها ؟ أو ترى الرجل العظيم الذى طرح المرأة من حسابه وأخرجها من حياته يعيش إلى آخر

أيامه قانعاً ناعماً ، أم أنه يشعر فجأة فى لحظة من اللحظات أن امتلاك العالم بأسره لا يعدل أحياناً امتلاك قلب امرأة ؟ ! .

١٦

اذكر انى ما قرأت بعض فقرات من «يوليوس قيصر» لشكسبير، الا غمرنى حزن حقيق . قصة أخرى أذكر أيضا أنها كانت تترك فى نفسى عين الأثر : هى رواية فرنسية تسمى «نابليون المسكين» لكاتب فرنسى يسمى « برنار زيمر » يصور فيها

الامبراطور سجينا فى جزيرة سانت هيلانة ، وقد قصت أجنحة هذا النسر الهائل ، وقلمت مخالبه ، وأمسى مخلوقا بائسا يهزأ به خادمه ويخفى عنه غليونه الذى يدخن فيه ، ويهمله سجانه الانجليزى ويدعه يتقلب طول الليل على مضجع الألم من مرض أضراسه ، فلا يرحمه ولا يحضر له طبيبا ولا دواء ويلقبه « بالدب » الذى وضع فى أنفه حلقة من حديد ويسمح لبعض الزائرين من السائحين أن ينظروا اليه خلسة من ثقب باب حجرته ، كأنه أسد هرم رابض فى قفصه بحديقة الحيوان ، هذا الذى كان وحده يقيم العروش ويثل العروش . ويدب بحذائه العسكرى على أديم أوروبا فتهتز لمشيته التيجان على رءوس

الملوك . وكان يقول فى صوته الحديدى : أنا وحدى «أوروبا» ، فتقول له أوروبا كلها ، بل أنت «العالم» .

نعم لا شيء يؤلم نفسى مثل رؤية « العظيم » يرى سقوطه بعينيه ، ومع ذلك لقد احتفظ هذا العظيم بكبريائه حتى النفس الأخير . فلقد كان يصر على أن يلقب بالامبراطوار ، ولقد خاطبه فى ذلك مرة حارسه الانجليزى قائلا له :

— امبراطور على من ؟ وامبراطور على ماذا ؟

فلم يجد منه الا تشبثا ، فأذعن رفقا به أو سخرية منه ، وترك له هذا اللقب الذى لا يغنى ولا يفيد . ولبث هذا البطل المهجور يعيش فى هذه الجزيرة المهجورة الى أن مات ، لا بين قصف المدافع

ودوى الأبواق ودق الطبول وهتاف العالم من جميع
الأركان . ولكن بين سكون النسيان ، لا يشيع
جثمانه العظيم غير خادم وسجان ! يا لقسوة القدر ! إن
السماء لتنتقم أحيانا من العظيم الذى يتوهم أنه بأعماله
قد غير وجه العالم ، فتؤخر موته أياماً عن
الوقت الذى كان ينبغى فيه أن يموت ، حتى يرى
بعينيه قبل أن تغلقا ، أن العالم بخير لم يتغير فيه شىء
بذهابه ، ولم تخفت ضحكاته ولم تقف برحيله عجلاته .

١٧

إنّ حبَّ الملكِ « ادوارد » لليدى « سمسون » هزّ عصرنا هزةً عنيفةً . لكأن « قلبَ » العالم كله نبضَ مع قلب الملك . وهتف متسائلا : أليس للانسان حق فى الحب ؟ أليس للملك قلب ؟ وجوابى : إن للملك قلباً ورأساً . أما قلبه فهو له .

وأما رأسه فهو لشعبه . ولا سلطان لأحد على القلب . فان هذا القلب لا يتوج ولا يبدو للناس . انما الرأس المضىء بالتاج رمز الحكم والعزة القومية هو وحده الذى يعنى الناس . هنا يبدو سؤال : اختيار الملكة التى ستتوج ، أهو من شأن القلب أم من شأن الرأس . كل الخلاف قائم الآن حول هذه المسألة . فلنترك الحل للأيام . انما الذى أريد التنبيه اليه ، هو النتيجة الاجتماعية التى سوف تتبع هذا الحادث الجلل . ان اشهار هذه القضية على هذا الوجه فى العالم ، سوف يملأ الأذهان بهذه الكلمة الجديدة : حق الانسان فى الحب ، ولسوف تطغى على العالم موجة عاطفية ، حتى لنرى الزوجة تهجر

زوجها خلف قلبها . والرجل بيته خلف حبه . والفتاة ذويها وراء غرامها . فاذا سئل هؤلاء فى ذلك قالوا : هو الحق فى الحب . وسوف ينسى الجميع ، تحت غمرة هذه الموجة ، الكلمة القديمة : أن الانسان لا يعيش « للحب » وحده ، انما يعيش كذلك « للواجب » .

١٨

يدهشنى فى حياة الملكة فكتوريا تلك الارادة التى استطاعت بها أن تفصل بين « واجبها » كملكة تحكم ، و « قلبهـا » كامرأة تحب . انها كانت مشغوفة بزوجهـا الأمير « ألبرت » ، ومع ذلك أقصته أول الأمر فى قسوة عن دفة الملك وشئون

الحكم ، وهو الرجل الذكى الواسع الاطلاع ، فكانت
تدرس هى معضلات الدولة وتتركه هو يقتل الوقت
بالقراءة وعزف الموسيقى . (آه ، ما أحوجنى أنا الى
مثل هذه المرأة التى تتركنى اقرأ وأكتب وأسمع
الموسيقى ، وتنصرف الى حمل المسؤوليات وحل
مشاكل العيش . . .) . شىء آخر يعجبنى فى تلك
الملكة العظيمة : انها كانت تقرأ . انى أحب
الملوك والقادة الذين يقرأون . تلك هى الوسيلة التى
بها يعرفون حاجات شعبهم . لقد قرأت فكتوريا
بعض قصص « ديكنز » التى يصف فيها شقاء
الطبقات الفقيرة وأحست وهى فى أبراج قصرها ما
يعانيه ألوف من البشر ، يطؤهم ظلم أرستقراطية

جامحة بعرباتهـا الفخمة وخيولها المطهمة . فأدركت من خلال سطور ذلك الأديب كيف أن فى بلادها عالما آخر مهملا يئن من الجوع والبؤس ، ولا يلتفت اليـه أحد . فتركت الملكة الكتاب وقامت صائحة مرتاعة لا يهدأ لها قرارا حتى مدت يدها الى أولئك المناكيد فرفعت عن أعناقهم نعال الفئة الباغية ، وأطلقتهم يعيشون فى هواء الحرية والرخاء كما يعيش الآدميون . فى مصر والشرق بغى وبغـاة ، وظلم وظالمون من جميع الأنواع . وفيهما كذلك فقر وشقاء وجهل وظلام فى كل ركن من الأركان . ولقـــد يسألنى سائل أين هو الأديب الذى يصف كل هذا البلاء ، ويصور هذه الدنيا التعسة المهملة التى لم تمتد

اليها يد اصلاح منذ أجيال ؟ ؟ جوابى عن هذا السؤال بسيط : هات لى من يقرأ ، أحضر لك من يكتب . ان الطاهى لا يوجد الا اذا وجد الآكلون . ان الشرق لن يتغير حتى يعلم قادته كيف يملئون أدمغتهم بكل ما يمكنهم من فهم حال شعوبهم . ان ربان السفينة لا يركب البحر قبل أن يعرف بعض أسرار الريح والماء ونجوم السماء . فلنرج دائما ممن يمسك بالزمام أن يمسك أيضا بالكتاب .

١٩

« كل شيء يزدهر فى مملكة تمتزج فيها مصلحة الشعب بمصلحة الملك » تلك كلمة قالها « لابروبير » فى كتابه « الأخلاق » تقابلها كلمة أخرى فى كتاب للهند عن رجل دخل على مليكه فقال له : « أيها الملك إن بقاءنا موصول ببقائك . وأنفسنا متعلقة

بنفسك . . » وضعتنى هذه الأقوال لحظة موضع التأمل وقلت فى نفسى ان هذه النظرة الى « الملك » لا يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الاجتماعية وحدها أو المبادىء السياسية أو العقائد الدينية . فالشرق والغرب لا يتفقان هكذا الا على شىء يخرج من نبع طبيعتنا الانسانية . ان الشعوب منذ فجر حياتها كانت دائما ترى الأمة هى الجسم والملك هو « الرأس » بمعناهما الطبيعى « الفسيولوجى » . هذا صحيح لا ريب فيه والملك هو الحاكم المطلق فى نظام الملوكية المطلقة . أما والأمة فى النظم الديموقراطية هى التى تتولى الحكم فمن الحق أن نتساءل عن صحة تلك النظرة القديمة . قليل من التأمل يهدينا الى

هذه النتيجة : أن الأمم فى شبابها كالفتى ، تغرى عقله كل مظاهر القوة وتسيطر على رأسه كل أحلام الفتوة ، فهى تجمع كل السلطة لتعطيها ذلك الحاكم المطلق الذى يدير كيانها ويحرك جسمها ويهز عضلاتها ، الى أن تمضى أيام الصبا وفورة الشباب وتدخل الأمة فى طور الرجولة والاستقرار ، فتحزم أمورها المادية بنفسها ، وتترك ملكها يشغل بما يشغل به الرأس الحقيقى من شئون الفكر ومسائل الثقافة . وهنا نرى الملك فى الشعوب الديموقراطية قد انصرف عن وظيفة الحكم المادى الى وظيفة أخرى تشبه وظيفة الرأس فى جسم الانسان المفكر فينقطع هو الى التوجيه الفكرى لأمته وتشجيع

العلوم والآداب والفنون وختم كل مظاهر النشـاط الأدبى والمادى فى الدولة بطابع الحضارة . فالملك فى كل زمان ومكان هو الرأس دائما ، على أنه فى الأمة الفتية رأس فتى ، وفى الأمة العريقة رأس رجل .

٢٠

كل شيء أمامى فى الريف يرتل نشيد السلام . فشجيرات الفول الخضراء ترقص مع النسيم ، وترسل فى الفضاء من حولى أريج زهرها الأبيض كما ترسل القبلات المعطرة . والبقرة ذات الأهداب الشقراء تتمطى فى أشعة الشمس كأنها حسناء تستيقظ فى

فراش دافیء . والكلب رابض قد أغمض عيناً وفتح أخرى تلقى على الكائنات نظرات الرضا والصفاء . والدواجن والهوام والأرض السمراء وجداول الماء ، كلها بأصواتها الصغيرة وأزيزها اللطيف وصمتها الدائم وخريرها الهامس تتراءى للمتأمل كأنها تتبادل حواراً خفياً مفعماً بكلمات الود والحب والأخاء الأبدى ، وكأنها جميعاً فى حركتها وسكونها جوقة موسيقيـة تخضع ليـد غير منظورة كى توقع لحنـاً متناسقاً أزلياً لا يسمعه غير الأنبياء والشعراء .

صوت واحد نشز فى أذنى عن هذه المجموعة : هو صـوت الانسـان . متى ظهر ظهرت معـه الفوضى ، ونشأ الخلاف حيث لا ينبغى أن يكون

خلاف . تلك طبيعته . وقد تكون تلك أيضاً عبقريته .

جلس إلىّ رجلان لا يختلفان فى الزى ولا فى اللغة ولا فى اللهجة . لكن سرعان ما سمعت أحدهما يقول لصاحبه :

— أنت فلاح . أما أنا فعربى .

فعنيت بالأمر ، وبادرت أسأل الرجل السؤال الذى طالما ألقيته فى مثل هذا الظرف :

— وما الفرق بين الفلاح والعربى ؟

فأجاب الرجل بذلك الجواب الذى سمعته كثيراً فى مثل هذا الموضع : مروءة العربى وشجاعته وشهامته وإكرامه الضيف وحمايته الجار . ثم . . .

ثم شرف النسب . لم يدهشنى ذلك ولكن الذى أدهشنى حقيقة ، وقد لا يصدقنى البعض إذا ذكرته هو أن هذا الرجل غير المتعلم قد أشار إلى صاحبه وقال :

— أما جماعة الفلاحين فما هم إلا أولاد توت عنخ آمون !

عجباً ! إذن منشأ الخلاف بين العروبة والفرعونية ليس أدمغة المفكرين والمثقفين . إنما هو فى الريف وفى قلوب ساكنيه !



فكرة الضحيـة واهراق الدم قربانا للمعبود لم تزل باقية الى اليوم . فالوثنية قـد خلفت تقـاليد لم يكن محوها من اليسير . إن ذبح الخروف فى العيد الـكبير ان هو الا ظل باهت لتلك العهود التى كان يدفع فيها الآدمى للذبح عند أقدام الهيا كل . ولـكن

الزمن غير الشكل ولم يغير المبدأ . ان الانسانية فى تطورها لا تمحو شيئا غرس فى طبيعة الانسان من قديم . ولكنها تبدل فى لونه وطلائه ، وتعدل فى ملامحه ، وتكسوه ثيابا أخرى ، وتسميه اسما جديدا يتفق مع روح العصر الجديد . فالانسان لا يتغير . انما هو يغير ريشه كالطيور ، وجلده كالثعابين . ولم يغب ذلك عن حكمة الأديان . فهى فى تعاقبها لم تنسخ كل ما رسخ من عقائد الانسان . ولكنها أخذت أكثر هذه العقائد بالرفق . فهذبت من وسائلها وغاياتها . فالضحية الآدمية جعلتها ضحية من الحيوان ، والغاية منها وقد كانت ارضاء المعبود وحده ، حولتها الى ارضاء الله بارضاء الفقير فى يوم العيد .

هنالك شيء ينبغي أن نتدبره اذا أردنا أحداث انقلاب في حياة البشر . الحذر كل الحذر من أن نقتلع شيئا من جذوره . فان ما نبت في قلب البشرية لا يقتلع . انما نحن نستطيع دائما أن نهذب ذلك الغرس وأن نميل به الى حيث تريد ريحنا . وأن نبدل بما نشتهى ألوان أزهاره وثماره ، وأن نولد منه أقوى الأشجار ، وهكذا نخرج للحياة مما كان وعلى أساس ما كان ، ذلك الذى يقول فيه الناس إن عين الشمس لم تره . آه ، ما أصدق تلك الكلمة : لا جديد تحت الشمس . نعم . ان يد « الطبيعة » لا تبرز جديدا ولا تميت قديما . ولا تمحو من الوجود . ولكنها تعدل وتبدل فى الموجود . فلنتذكر دائما ان لا شيء

ينعدم فى الطبيعة . وليست « المادة » وحدها هى التى لا تنعدم ، كما يقول الكيمائيون . كل شىء لا ينعدم فى هـذا الوجود . إن الطبيعة لا تعرف كلمة « العدم » ولكنها تعرف كلمة « التحول » .

ذلك أسلوب الخالق الأزلى ! !



إنى أتجنب دائمـا رؤية خروف العيد حيـاً قبل العيـد ، وأتحـاشى أن أدنو منه أو ألاطفه أو أعقد بينى وبينه أواصر صحبة أو مودة ، خشية أن تمضى سـاعات فاذا هو أمامى مشوياً فى طبق ، ينظر إلىّ بعينين يسيل منهما الدهن والزبد ، نظرات كلها

ازدراء لما تكشف له من خلقنا الانسانى المنطوى على الخيانة والغدر ! إنى أتخيل دائما معانى هذه النظرات الهادئة العميقة التى تنبعث من عيون هذه الحيوانات الوادعة الأليفة . إنها لأبلغ فى إنسانيتها أحيانا من بعض نظراتنا الآدمية ، التى يشع منها بريق جشع حيوانى ، ونهم مفترس ، قد لا تعرفه غير الضوارى والكواسر !

إنى لأتخيل الحديث الذى يمكن أن يدور بينى وبين هذا الخروف لو أنه منح القدرة على الكلام :

— لماذا صنعتم بى هذا ؟

— لمجدك الأبدى

— مجدى الأبدى ! هذا الذبح والسلخ والحرق

مرة فى كل عام على مدى الدهور والأيام !

— نعم ، هو مجدك الذى ينبغى أن تتيه به وتفخر وتزهى على غيرك من الحيـوان ! إن دمك يراق من أجل فكرة ، وحيـاتك تضحى فى سبيل عقيدة !

— آه للأنسان ما أبرعه فى إلباس صغير الفعال رائع الثياب !

— نعم ، هنا مفتاح سمونا وسر عظمتنا !

— هنا الفرق بيننا وبينكم .

— نعم ، كل الفرق .

— إن الغرائز السفلى ما زالت هى النـاموس الأعظم لنا ولـكم . ولم تستطيعوا مع قدرتكم وقوتكم

أن تخرجوا عن نطاقها قيد أنملة . . .

— ولن نخرج .

— إنما كل عملكم أن تضعوا على حقائقها العارية رداء ، كما وضعتم على أجسامكم العارية لباساً . نحن العارون جسداً وروحاً ، وأنتم الكاسون جسداً وروحاً . أما بعد ذلك فلا اختلاف بيننا وبينكم .

— هذا صحيح يا سيدى الخروف !

٢٣

حدث فى الأسبوع الماضى أمر أحب أن أسجله هنا : هو قيام القيامة فى الجامعة ضد كتابين قيمين ، لأنه قد ورد فيهما طعن فى الاسلام .

لا أريد أن أنظر إلى الأمر من ناحية التفكير الحر ، ولا من حيث تأثير هـذا الموقف فى الحياة

العقلية لبلد متحضر . ولكنى أريد أن أبحث المسألة من جهة الدين نفسه . وهنا يبدو لى العجب : لماذا كل هذا الفزع كلما وقع بصرنا على عبارة تمس الاسلام ؟ إن الكتب التى عالجت المسيحية وتعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنشر فى أوروبا المسيحية دون أن يخشى أحد على كيان المسيحية . ذلك أن الجميع يعلمون أن الأوان قد فات للخوف من مثل هذه الصيحات ، وأن المسيحية التى عاشت عشرين قرناً لا يهدمها عشرون كتابا . كذلك نستطيع أن نقول فى الاسلام . إن هذا الدين المتين الذى عمر نحو أربعة عشر قرناً وثبت لأحداث الزمان ، وشاهد دولا تدول وعروشاً تزول وشعوباً تولد وامبراطوريات

تقام ، لا يمكن أن يتعرض للخطر أمام كتاب يؤلف أو عبارات تقال . إن هذا الفزع منا لأكبر مسبة لدين عريق عميق . كذلك يدهشنى أن ينشأ هذا الفزع فى جامعة عصرية ، يؤمها شباب قد قطع مراحل الطفولة والصبا الأول وانغرست فى قلبه العقيدة الحارة ، فلا خوف الآن عليه من مناقشة المسائل العقلية فى جو الحرية .

إنى أعتقد دائما أن صحة العقل وصحة العقيدة كصحة الجسم ، لا بد لها من الهواء الطلق حتى تكتسب المناعة . وأن حبس العقيدة والعقل فى قفص من الزجاج ، خوفاً عليهما من خطرات النسيم ، معناه إنشاؤهما على بنية عليلة وكيان سقيم .

٢٤

كلما ارتقى فكر أمة انصرفت إلى إتقان الصناعة وحذق الوسائل الفنية ، وشعرت فى الحال بافتقارها إلى المواد الأولية . فالصناعة غول فاغر فاه يريد أن يلقف أكبر مقدار من المادة ليحولها إلى خلق جديد له وزن وثمن . أما الأمم العادية فهى مشغولة فى

أغلب الأحيان بانتاج المادة الخام .

كذلك الحال فى دولة الأدب والفن . فان الأديب أو الفنان قبل أن يصل إلى مرحلة الانقطاع للفن والصناعة يكون شأنه شأن عامة الأفراد : يعيش الحياة المفعمة بشتى الحوادث ، الزاخرة بألوان المادة الصالحة ، حتى يدعوه الفن إلى سمائه ، فاذا هو يرى أن حذق أساليب الفن وإتقان أسباب الصناعة أمر لا بد له من تكريس حياة بأكملها . فاذا هو قد انصرف عن حياة الناس العادية بما فيها من وقائع هامة وتافهة وأحداث هائلة أو حقيرة ، وانعزل فى شبه « معمل » فنى أو مصنع فكرى يجوّد فيه وسائله ليملك ناصية ملكاته ، إلى أن يحس من نفسه

أنه قد قطع فى هذا السبيل شوطاً كبيراً وأنه قد غدا صاحب صناعة . فيلتفت ، فاذا أيامه التى قضاها فى مصنع الفن قد فصلته عن الحياة الرحبة الصاخبة الزاخرة ، وإذا حياته الآن فارغة إلا من جواهر الفكر ولباب التأمل وتجاريب الصناعة القلمية أو الفنية . وإذا هو محتاج لاستعمال فنه وصناعته إلى مواد أولية لا يدرى من أين يأتى بها : لذلك يرجع أحيانا إلى حوادث الماضى فينسج من ذكرياتها تلك الأثواب الجميلة التى تخرج عن مصنع فكره وفنه . لقد لحظ ذلك مرة شارلز ديكنز فقال وهو فى سن الستين :

« إنى دائما أتغذى وأغذى قصصى ومؤلفاتى

بذكريات الطفولة والصبا ! »

ما الأديب ذو الصناعة إذن إلا دولة صناعية فى حاجة دائمة إلى المواد الأولية .

٢٥

« هل كانت علومك المدرسية ذات أثر فعال في اظهار مواهبك الأدبية ؟ » هذا السؤال القته مجلة أدبية فرنسية على الروائى دورجليس فأجاب :

« إن الرجل الذى يهجم على الأدب وهو مزود بتكوينه المدرسى وحده لا يمكن أن يكون غير كاتب

ضعيف » . وقال الشـاعر بول فاليرى فى مثل هـذا المقام : « إن أسـاتذتى فى المدرسـة كانت لهم عن الأدب فكرة تدعو الى الرثاء . يخيل الىّ ان الغباء وفقر الذهن وبلادة الشعور وضعف التصور وانعدام الخيال مواد مقررة رسميا فى المناهج الدراسية » !

لو سئلت أنا أيضا لما خرجت اجابتى عن هـذا المعنى . فلقد فعلت المدرسـة كل شىء لتنفرنى من الأدب ، وتخيفنى من اللغة . فوضعت بين يدى اسمج الكتب العربية معنى وفكرا ، وأعسرها لغة وأسلوبا وأبعدها عن مخاطبة النفس المتفتحة لجمـال الخليقة . لقـد علمتنى المدرسة كراهية الشعر العربى . وقـد لبثت زمنا لا أطيق الاصغاء الى بيت واحد من

ذلك الشعر السخيف الذى ارغمنا على حفظه ارغاما . شعر ليس فيه قطرة من ماء الشاعرية . انما هو ضرب من تلك الحكم والمواعظ المنظومة التى لا كتها الالسن ومضغتها الأفواه حتى أصبحت «تفلا» جافا لا نفع فيه . تلك هى مادة غذائنا الذهنى . أما اذا اجتهدنا فقرأنا كلاما جميلا خارج المدرسة فانا لن نلقى من المعلم غير التجهم والاستنكار .

وأذكر أن الأدب الانجليزى اوحى الىّ كتابة قصة تمثيلية صغيرة وأنا فى المدرسة الثانوية فرفعتها نخورا الى مدرس الأدب العربى ، فكان جزائى الاهمال المهين . على أن من الانصاف أن أذكر أن معلما شجاعا تجرأ يوما فأطاعنا على أبيات عذبة رائعة

للعباس بن الاحنف فأشرقت وجوهنا وانطلقت من
قلوبنا آهة العصفور الذى أفلت من قفص وحلق
فى فضاء الطبيعية الباسمة الجميلة . فارتعد المدرس
المسكين والتفت الى باب القاعة خائفا ، كأنه اقترف
جرما هائلا . منذ ذلك اليوم أدركت أن هنالك
كنوزا فى عالم الأدب والشعر يخفونها عن عيوننا
المتطلعة .

٢٦

سـألنى أديب : ما هو الأدب المصرى ؟

فقلت : ليس من السهل علىّ الكلام فى الأدب المصرى . ولئن كنت قد فهمته ذات يوم على وجه من الوجوه ، فانى الآن أريد أن أفهمه على وجه جديد ، وأن أسير فى طريق آخر . ان الفن فى

رأيي كالعلم . لذته فى إحداث التجاريب . وما أحسب انى اصنع فى الأدب والفن غير مجرد تجارب قد لا تؤدى الى شيء . فاذا كنت جئت تلتمس عنـدى رأيا قديما فى الأدب المصرى فانك قـد وقعت اليوم على رجل لن يقول لك ما أردت أن تسمع منه .

انك تطلب الىّ أن أقنعك وأقنع الناس برأى . ولكن أنا نفسى أريد أن أقتنع .

عقيدتى أن الأدب لا يتحدد معناه بالـكلام ، انما يتحدد بالعمل . ان معالجتى مختلف الاساليب من عامى تارة ومن فصيح تارة أخرى ، وتنقلى بين قوالب شتى فى القصص التمثيلي والمرسـل ، وأنواع كثيرة من جد وهزل ، لا يمكن أن يفسر بشىء الا

انه بحث طويل عن ذلك الاقتناع الذى تسألنى عنه .
ان اولئك الذين انتقدوا استعمالى بعض الأساليب
لم يدركوا أن هذا كان لمجرد البحث وأن هذا لا يعنى
التمسك والدفاع عن أسلوب بعينه . انى الآن على
الأخص بعيد كل البعد عن الاعتراف بكل تلك
الأساليب . انى فى حاجة الى أن أهدم دائما ما أصنع
لأعيد التجربة من جديد . انك تحسبنى أبالغ . ولكنى
أضع بين يديك المعضلة حتى تتبين مرمى هذا الكلام
ان الأدب المصرى مرآة صافية لهذا البلد يصور
أرضه وحياته وأهله . هكذا يقول بعض الأدباء
وليس هنا موضوع القضية . انما المسألة : كيف
نصور حياتنا ؟ بأى الوسائل وأى الأساليب ؟

أنستجلب وسائلنا من الغرب ومستحدثاته وما وصل اليه بعد جد وكد وتجاريب ؟ أم نتخذ وسائل الشرق بعد أن نضعها موضع البحث ونجرى عليها التجارب حتى تخرج منها قوالب جديدة تستطيع أن تشيع فى الغرب وتؤثر فيه كما أثر فيه القالب الشعرى « الرباعيات » ؟ ان الذين يريدون وسائل الغرب ينادون بالقصة . ولا بأس فى ذلك ، لأن القصة أيضا خلق شرقى قبل أن تكون فى أدب الغرب . انما الكلام : أنرجع بالقصة الى منابعها الأولى فى الشرق ومن ثم نجرى عليها الاعمال ونفرع منها الأشكال ؟ أم نقبل من دون جدال ما أدخله الغرب عليها من تجديد ؟

جوابي على مثل هـذه الأسئلة الآن لا فائدة
فيه . اني كما ذكرت ينبغي أن أجيب بطريقة أخرى : ان
اغرق زمنا في الكتب القديمة وأن أمسك بالقلم وأن
اكتب صفحات لا عدد لها ، تمزق آخر الأمر ولا
يبقى منها غير وريقات قليلة أنظر فيها كي أقول لك
بعدها ان التجربة الهمتني الجواب .

٢٧

تمر بى فى الحياة لحظات أود فيهـا لو أسأل الله أن يفك أجزائى ويعيد بنائى ، طبقـا لشروط أخرى و«مواصفات» جديدة كما يقال فى لغة أهل العمارة والهندسة ولكن .. سرعان ما أذكر كلمة «باسكال» .
« لو أن أنف كليوباترا كان أكبر قليلا مما كان لتغير

وجه التاريخ » . هذا صحيح . ومن يدريني . لعل
قائلا يقول فى أمرى غدا : « لو ان انفه كان اصغر
قليلا مما كان لتغير وجه الأدب العربى الحديث » .
ولكن الواقع الذى اوقن به ان تركيب الانسان
كتركيب العقاقير . فقليل من « السلامكى » على
قليل من الشمر والينسون ينتج « ملينا » للأمعاء .
كذلك حياة كحياتى مع قليل من ميولى وقليل من
مطالعاتى ... ينتج أدبا كأدبى ... فكيف اذن
يغير الله بعض عناصر تركيبي دون أن تتغير النتيجة
كل التغيير . وما الذى يحمله على ذلك ، الا رغبتى .
ومتى كنا نخلق طبقا لرغباتنا . لقد قرأت يوما كلمة
عنى فى احدى الصحف يقول فيها كاتبها : « انه

يريد ان يعيش لفنه ولفنه فقط» . فابتسمت وقلت : « أنا أريد » ؟ وهل لانسان الحق فى أن «يريد» ؟! لو انى اردت ان اعيش لشىء آخر غير فنى لمـــا استطعت . كلمة « أريد » تبدو ساذجة مضحكة من أفواه البشر وهم فى حضـرة « القدر » . انا لا اريد لانى لا استطيـع ان أريد . ما انا الا تركيب كيمائى مثل ذلك «الملين» ، لا بد له « بهذه العناصر مجتمعة » ان ينتج هذا « المفعول » الذى يسمونه «الفن» او « الأدب » .

لا فرق فى نظر « الطبيعة » بين « النحـلة » و «الأديب» . كلاهما مخلوق يتنقل بين أزهار لينتج عسلا آخر النهار . ومن هذه « المادة » الحلوة يصنع

احدهما بنـاء فصيلته ويقيم الآخر بنـاء أمته . ولو سئلت « نحلة » عن رأيها فيما تفعل لما وجدنا عندها رأيا ولا ارادة انما هى تفعل ما تفعل بدافع من تركيبها « البيولوجى » . كذلك «الأديب» مدفوع الى التفكير والانتـاج بحكم هذا التركيب . ولطالما تفجرت ثائرا : « لماذا ولمن اقتل نفسى بهـذا العمل المضنى » ؟ فاسمع الجواب من اعماقى : « انك لا تنتج لشىء ولا لأحد ، ولكن ... لانك لا تستطيع ان تفعل غير ذلك .. ما أنت الا نحلة تفرز « الأدب » شاءت أو كرهت ..

٢٨

لبعض القراء ملاحظات تدل أحيانا على جهل بطبيعة الأدب . من ذلك أن يعيبوا على الأديب تحدثه عن نفسه . أمثال هؤلاء القراء لا بد أن يكونوا من تلاميذ المدارس اوالمتخرجين فيها حديثا . فهم يخلطون بين « معلم المدرسة » وبين « الأديب

الفنان » . فمهمة « المعلم » الأولى ان يلقن اصول المعارف وان يفرغ فى اذهان النشء مادة بعينها بغير ان يكون لشخصه دخل فى الأمر . أما « الأديب او الفنان » فلا يلقن شيئا ولا ينبغى له . لأنه يخاطب قوما مفروضا انهم قد جاوزوا مراحل الدرس ، فهو يخرج لهم عصارة العلوم والمعارف والتجارب مقطرة من خلال « نفسه » ان كل ما نطلبه ونرجوه من رجال الأدب والفن أن يحدثونا عن كل خلجة من خلجات نفوسهم ، وكل دقيقة من دقائق حياتهم وكل لمحة من لمحات ابصارهم ، وكل ناحية من نواحى احساسهم . ان « نفس » الأديب العارية هى كل ما ينبغى ان يضعه تحت انظارنا .

ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقا بأديب . فالأديب هو الآدمى الوحيد الذى خلق لكى يفتح لنا نفسه لنرى من خلالها النفس البشرية قاطبة . ويتحدث الينا عن نفسه فنرى من خلال حديثه كل تجاريب الانسانية الشاعرة . وان كل رجال الأدب العظام ليسوا الا آدميين حدثونا طول حياتهم عن أنفسهم . بوسائل شتى . وانا كقارىء لا يروقنى شىء مثل قراءة المذكرات التى يكتبها الأدباء والعظماء عن حياتهم الخاصة . والخطابات والرسائل التى تتناول مسائل تمس أشخاصهم . فنحن فى تلك الكتابات المجردة عن أثواب التكلف والصناعة نستطيع ان نهبط الى اغوار تلك النفوس الرحبة الغنية . كما يهبط

الغواص فجأة الى اعماق البحار ، فيفاجىء اللآلىء
فى اصدافها لم تمسها بعد يد غريبة ، تنتزعها لتدخل
عليها زيف الصياغ . ان الفنان اذ يحدثنا عن نفسه
وفنه وحياته الخاصة انما يقدم لنا مادة فنية غير
مصنوعة ، انما يترك رداءه الرسمى ليخرج الينا بثياب
البيت ، فى غير كلفة كأنه صديق . وهذا منتهى
الاخلاص منه ومنتهى التكريم لنا .

٢٩

ها أنذا أهبط الى برجى العاجى مع الشتاء . فى الوقت الذى يهبط فيه «الأب نويل» مع عيد الميلاد . انى أرى لحيته الطويلة البيضاء تمتد حول الكوكب الأرضى . لقد كان طرفها بالأمس فى بلاد الجليد فاذا هى اليوم فى بلاد الشمس والهلال . لقد طفت

بالمدينة فرأيت عجبا . لقد انقلبت القاهرة رأسا على عقب . أنوار وأعلام وزينات وأفراح . والناس جميعا مشغولون باعداد سهرات العيد . والمسلمون قبل المسيحيين . والشرقيون قبل الغربيين . يتسابقون الى الاحتفال بعيد ليس عيدهم . ولكنهم يريدون تقليد الأجانب . بل انى لأعرف بيوتا وأسرا شرقية مسلمة تقيم فى منازلها « شجرة الميلاد » اسوة بالأوربيين . نعم ، لقد ذهبت أعياد الشرق . فلم يعد أحد يأبه لعيد الأضحى أو الهجرة أو ليالى رمضان . ان اعيادنا تقبل علينا فلا نبسم لها ولا نتأهب ولا نخرج لاستقبالها ، انما نحبس أنفسنا فى بيوتنا كأننا نخجل منها ومن أنفسنا فاذا جاءت

أعياد الأجانب أسرعنا نخرجنا لها باشين مهللين . نحن فى بلادنا نشارك الاجنبي فى أعياده وهو على أرضنا لا يشاركنا فى أعيادنا . وبذلك أفهمنا الأجنبي وعلمنا آلنا وأطفالنا منذ الصغر ازدراء ما هو شرقى واحترام ما هو غربى . وهكذا أثبتنا للعالم ان مجرد وطء أقدام الاوربى أرضنا كاف ان يزلزل حصوننا المعنوية . نعم . لقد كان الغربى يخطر على باله كل شىء الا أن الشرقى ينبذ من أجله حتى أفراحه الشرقية التاريخية العريقة بألوانها الزاهية وطابعها الأصيل . انى ليخيل الى أن الغربى ذاته ، ذلك الضنين بتقاليده ، الحريص على تجميل خرافاته ، يدهش لرؤيته وجه الشرق قد انطمست ملامحه بهذه

السهولة وضاعت معالمه من الرءوس والنفوس وزال رسمه الحقيقى ، الا من تلك الصفحات الرائعات التى سطرها أمثال بيير لوتى وجيرار دى نرفال من الأوربيين انفسهم ، الذين أعجبوا بالشرق يوم كان الشرق يحتفظ برداء شخصيته ، فلا يخلعه ليجرى عاريا كالشحاذ خلف الغرب . انى لم أر قط باعتنـــــا المتجولين يصيحون « بعرائس مولد النبى » فى الطرقات ولكنهم صاحوا البارحة بنداء شق الفضاء « الأب نويل بقرش أبيض . الأب نويل بقرش أبيض » وبهذا تم لذى اللحية البيضاء غزو الشرق ! !

٣٠

سـألني من أيام مؤلف من المؤلفين عن فكرة غريبة قال انها جالت بخاطره :

« ترى ماذا يفعل الانسان اذا علم أنه سيموت بعد عام ؟ »

فقلت له :

- الجواب يتوقف على معرفة نوع هذا الانسان وطبيعته وعمله .

فقال :

- انا وانت مثلا . ماذا كنا نصنع ؟

فأجبته على الفور :

- انا وانت ؟ كنا ننكب فى الحال على التأليف والكتابة ليل نهار .

فقال فى دهشة :

- كنت أحسبك تقول العكس . وترى ان قرب الموت قد يجعلنا نطلق العمل ونفزع الى حياة اللهو والمتعة أو على الأقل حياة الهدوء والراحة .

- نحن يا صاحبي نفعل ما يفعله كل أب بار .

فما الذى يصنعه الأب البار بأبنائه حينما يدنو منه الموت ؟ ألا يتمنى أن يتركهم وقد اكتمل نضجهم ، الا يفكر ليل نهار فى اتمام تربية هذه الأكباد حتى تقوى على المشى فوق الأرض ؟ وانا وانت لسنا أكثر من آباء ، لنا أكباد تمشى ، لا على الارض .. لكن على الورق .. فكيف نموت وفى خزائن أحدنا صفحات من كتاب لم يكتمل . وعلى مكتب الآخر قصص تعج بأشخاص نصف أحياء يطالبون بحقهم فى الحياة ، ويمسكون بتلابيب « مؤلفهم » لا يدعونه يموت قبل أن ينفخ فيهم بعض الروح ! إنه ليخيل الى أحيانا أن حياتنا متصلة بحياة انتاجنا وان فى اعماق كل « خلاق » شبه غريزة داخلية تدفعه الى

الانتاج البطىء أو السريع تبعا لطول حيـــاته أو قصرها . انا قد بعنا أنفسنا لشيطان « التـأليف » ولن يتركنا هـذا « الشيطان » فى راحة الا عنـد ما نلفظ النفس الأخير .

٣١

يقع لى أحيانا أن أهبط محلا عاماً فيتقدم إلىّ شخص لا أعرفه ، يحيينى تحية رقيقة ويقول : «أحد قرائك المعجبين» ثم يمضى دون أن يزيد . ويحدث لى دائما فى كل عيد أن أفض البريد فأجد بطاقات التمنيات ورسائل التهانى كأنها باقات الورد من قراء كرام لم

تبصرهم عيني ولم يروني إلا فكرة تعيش في سياج السطور على أديم الصفحات .

هنا معنى الاتصال الروحي ، ارفع الوان الاتصال ، واسمى انواع المشاعر . وإني ليملؤني العجب حيناً ، ويداخلني الزهو أحياناً إذ أجد في الشرق مثل هؤلاء القراء !

لكن مهلا ... فيم العجب ؟ ألسنا القائلين إن الشرق هو قلب « الروحانية » النابض ؟

إنما المدهش حقاً هو أن نرى قراء الغرب يبعثون كل صباح ملايين الرسائل إلى كتابهم المحبوبين ! نعم أين هذا الاتصال الروحي من ذاك ! إذا قلنا إن الفرق في عدد القراء وانتشار الأمية أو

التعليم هو السبب ، لكذبتنا الأرقام والنسب ، ولتبين لنا آخر الأمر أن الشرق متخلف فى هذا المضمار على كل حال .

إن عيب الشرق هو « الكسل » . والقارىء الشرقى على وجه عام رخو المزاج فاقد النشاط . إنه يطالع وتتأثر نفسه ويتفتح قلبه ، ثم لا يلبث أن يتثاءب ويلقى الكتاب وينسى المؤلف وتخمد فيه الجذوة . ثم هو بعد ذلك كثير الاهمال قليل الاكتراث . فأين القوة الداخلية التى تدفعه إلى طلب الاتصال بذلك الروح الذى أنس إليه ؟

إنه « يستهلك » مادة الكتاب مثلما يستهلك مادة الطعام ، دون أن يلقى بالا إلى الطاهى الذى أعده

لمائدته . وهكذا يتكشف الأمر عن هـذه النتيجة العجيبة :

إن روحانية الشرق قد هبط بها « كسل النفس » إلى المادية ، وإن مادية الغرب قد ارتفع بهـا « تيقظ النفس » إلى الروحانية !

٣٢

إن الحرب المستعرة المستترة داخل نفسى منذ
ولدت ، تلك الحرب التى لم تعرف يوما الهـدنة ولا
السلام ، جعلت منى رجل كفاح ، دون أن أشعر
أو أريد . انى لم أذق قط طعم الاطمئنان . انى لم
انعم قط براحة الاستقرار . لكأنى دائما أمتطى

ظهر جنى ، واركض خلف صيد وهمى . ليس فى الأرض حد يقف عنده ركضى . ماذا أريد ؟ وماذا يراد منى ؟ لست أدرى . إنه كفاح داخلى أثخن نفسى بالجراح . لكأن القدر أراد إنشاء روحى على احتمال الطعنات . فقوة الروح هى فى طاقتها هضم الألم ، كما تهضم المعدة القوية بعض السم فى الدسم . إن الرجل القوى ليس ذلك الصحيح الذى يعيش بمنجى عن مرمى السهام . بل هو ذلك الجريح الذى يتلقى بجسده النصال من كل مكان ، ويبقى جامدا صامدا . كان الأنبياء والعظماء من هذا الطراز . إن منظر النبى محمد وقد حثا الناس علي رأسه التراب ، ومنظر المسيح وقد توجوه بأكليل الشوك ، ليملؤنى

إيماناً بأن العظمة هى فى الكفاح ، وأن أروع الكفاح هو كفاح النفس فى سبيل احتمالها الضربات فى صبر وابتسام . لقد أصابنى ما يدمى من سهام الأقلام . ولكنى كنت أقول فى نفسى : « إنى إذن حى ، فالكاتب الحى هو الذى ينهش كاللحم الحى ، لأن الجيف لا تطعن ولا تنهش ، وما دمت حياً ، فلا شىء فى الأرض يمنعنى من الركض على جواد الكفاح » ! . .

٣٣

كنت أشكو ذات يوم عسرا فى الهضم وقلة فى النوم ، وأضيق ذرعا بالأدب والأدباء ، واذا زائر أديب يلح فى طلب رؤيتى ولا يريد أن ينصرف حتى يجاب الى ما طلب ، وعلمت أنه ممن لم يسبق لهم أن رأونى ، فخطر لى خاطر سريع . ناديت تابعا

لى وأجلسته الى مكتبى وطلبت اليه أن يقابل الزائر باسمى ، وانتحيت جانبا اقرأ احدى الصحف . ولم يلبث الزائر أن دخل وسلم على تابعى فى احترام قائلا :

— يا أستاذ ، إنى سعيد جدا إذ استطعت أن أراك ، فأنا من قرائك المدمنين ، اقتنيت كل كتبك ، وطالما رسمت لك فى مخيلتى صورة أراها الآن طبق الأصل .. فالحمد لله لم يخب ظنى فى شىء ، انى اراك الآن كما تخيلتك من بين سطورك .

فطرحت من يدى الصحيفة ونظرت إلى الرجل محملقاً . أهذا الرجل جاد صادق ؟؟ لا شك عندى فى ذلك ، فكلامه مفعم بالحرارة والاخلاص ، ولكن كيف انطبقت الصورة « طبق الأصل » على

غير الأصل بهذه السهولة ؟! وجعل هذا الزائر يكثر من ترديد اسمي ويسبغه فى اقتناع على سكرتيرى الجالس الى مكتبي ، فشعرت بخلجة من شك هزت نفسى . ماذا بقى منى اذن ؟ هذا هو « توفيق الحكيم » الى مكتبه كما يعتقد الآن هذا الزائر ، وتلك صورته كما ظهرت له من بين السطور . أما أنا فشيء لا علاقة له بهذا الرجل ولا بما قرأ . اسمى قد انفصل عنى وانتزع منى تلك اللحظة كما تنتزع الامضاء عن « الكمبيالة » ! وما أنا فى تلك الساعة الا كتلة من لحم ودم ملقاة على مقعد . وقد خيل إلى أن لفظ «توفيق الحكيم» ليس أكثر من علامة أو «ماركة» توضع فوق كتب مثل ماركة « الفابريقة » فوق علب

« الساردين » . ان بعض « الاسماء » لتتخذ لها أحيانا حياة مستقلة عن أصحابها . وهذا « الاسم » هو وحده الذى يباع ويشرى فى سوق الكتب والوراقين ، ولدى الصحف والمجلات ، أما الشخص فقد لا يعنى أمره كثيرا من الناس . ولأول مرة أدركت انى غير موجود فى نظر الجمهور باعتبارى «شخصية آدمية» . انما الذى يعاملونه هو «الشخصية المعنوية» . فمثلى فى ذلك اذن مثل شركة « النور » و « الغاز » و « المياه » ! !

٣٤

فى حياتى الفنية جانب مجهول أردت ألا أعترف به ورأيت أن أقصيه وأن أسدل عليه الستار ، لأنه فى نظرى اليوم لا يتصل بأدبى ولا يجوز أن يدخل فى عداد عملى . ذلك هو عهد اشتغالى بكتابة القصص التمثيلى لفرقة « عكاشة » حوالى عام ١٩٢٣ . غير أن

المصادفة شاءت أخيراً أن ألتقى بمن يذكرنى بهذا العهد ، ويعرض علىّ طرفاً مما كنا نعمل فى ذلك الحين . ذلك روائى اشترك معى فى قطعة موسيقية قام بتلحينها المرحوم كامل الخلعى . ثم انقطع عن الفن منذ ذلك الوقت وشغلته شئون الحياة . ثم اختلينا فجعل ينشد لى بعض أغانى رواياتنا القديمة وأنا فى ذهول ! شد ما تغيرت أنا وتغيرت نظرتى للفن مرات ومرات خلال تلك السنوات ! ولكنه هو باق كما كان على احترام تلك القواعد والمثل التى كانت هدفنا ومرمى أبصارنا فى الكتابة المسرحية . إنه فيما خيل إلىّ لم يقرأ شيئاً مما أكتب وأنشر اليوم . فهو لا يعترف بعملى الآن . وهو إذ يحادثنى فى شئون الفن لا يبدى اهتماما ولا إعجابا إلا بما كنت

أصنع قبـل ثمانية عشر عاما . أما اليوم فأنا فى نظره غير موجود . إنه يذكرنى بأشخاص رواياتنا الغـابرة كمن يذكر بأناس من أهل الحسب والنسب والكرم والشهامة لن يجود بمثلهم الزمان . فهو يترحم عليهم ويقول : « مضى كل شىء ! ولن نرى مثيلهم أبداً على خشبة مسرح من مسارح اليوم ! » . هذا صحيح . وجعلت اتأمل قوله لحظة فخامرنى شك فى أمرى اليوم وقلت فى نفسى : «ألا يكون هو على حق ؟ وأكون أنا قد ضللت وانحرفت عن طريق الفن الحق ! إن فن المسـرح فن مرجعه السليقة السليمة لا الثقـافة الواسعـة . إنه شىء والأدب شىء آخر . أترانى محتـاجاً إلى ثمانية عشر عاما أخرى لأكر عائداً إلى ذلك النبع الذى بدأت منه ونأيت عنه ؟ » .

٣٥

من المسئول عن فتور الحركة الأدبية الملحوظ في مصر ؟ لا ينبغي أولا أن نعلل ذلك بالحوادث الدولية ، فان الفتور كان دائما موجوداً في جونا الأدبي قبل أن تنشأ هذه الظروف . ثم إن المشاكل السياسية وتأثيرها في النفوس والشعوب لم تحل في

أوربا دون اهتمام الناس بشؤون الفكر وعناية الجمهور بالكتب والأدب . فما زالت الصحف الأدبية تتحدث هناك عن ظهور الكتب الجديدة والأدباء الجدد بعين الحماسة التي تتحدث بها في كل زمان . وما زالت المسابقات الأدبية والجوائز السنوية تهز الناس وتثير نشاط الكتاب كما تفعل في كل حين فأحداث السياسة مهما يعظم خطرها لا يمكن أن تشل في أي بلد متحضر حركة الفن والفكر . فالأمة الراقية شأنها شأن الانسان الحي مهما يعرض له من الحوادث فان رأسه دائما هو الرأس اليقظ الذي لا يني عن التفكير .

إذن ما بال هذا الرأس في بلدنا نائما ؟ وما بال

الناس لا يشعرون أن فى مصر أدبا يتحرك ويتطور ، وأن فيها أدباء يعملون وينتجون ؟ ما يكاد يمضى شهر حتى تخرج المطابع كتباً فى الشعر والنثر . وما يكاد يوم يولى حتى يجيئنى البريد بكتاب جديد أو بديوان شعر جديد . كم من الأدباء الجدد والكتاب الناشئين يخرجون عندنا فى كل عام أعمالا جديرة بالكلام ؛ بل كم من الأدباء الناضجين ينشرون آراء خليقة بالمناقشة ؛ ولكن كل ذلك يمر فى فتور كأنها نسمات فى مدينة الأموات . ما العلة ؟ العلة بسيطة : ما من أحد فى هذا البلد يبدو عليه التحمس الملتهب لشئون الفكر والأدب . إن علة الفتور هى الأدباء أنفسهم . إنهم فى ميدان الأدب أقل نشاطا منهم فى ميدان

السياسة مثلا . إنهم يكتبون فى الأدب وكأنهم ناعسون . إن أقلامهم لا تثير فى جو الفكر حراكا . وهنا الفرق بين أدبائنا وأدباء أوروبا . إنهم هناك فى يقظة أدبية ، ومن كان فى يقظة استطاع أن يوقظ الآخرين .

٣٦

إنى من الذين يعتقدون أن فى مصر اليوم نهضة ملحوظة فى الأدب والفن ، وأن الأدباء والقراء يزدادون يوماً بعد يوم . على أن الذى يسترعى الالتفات ويدعو إلى القلق هو أن نتاج الذهن لم يبلغ بعد فى قيمته المادية وأثره الاجتماعى المستوى

المطلوب . لماذا ؟ لأن هنالك عنصراً آخر في هـذا الشـأن ما زال مفقوداً . إن قوة الأدب والفن في أمة لا ترتكز فقط على طائفتي الأدباء والقراء . هنالك طـائفة ثالثة عليهـا يقع قسط كبير من عبء العمل ، واليها ينسب بعض الفضل في إذاعة نتاج الذهن وإيصاله إلى متناول كل يد ، وإحداث الضجيج حوله ، والاعلان عن خطره . أولئك هم الوسطاء التجار والناشرون . ففي فرنسا مثلا ما يكاد يظهر كتاب جديد في باريس اليوم حتى تجده في صبـاح الغـد معروضـاً في أصغر قرية من قرى الريف الفرنسي . ووسـائلهم في ذلك بسيطة أوجه إليهـا نظر تجار كتبنا الكسالى المتواكلين . إنهم يعلمون

أن الكتاب لا يطلب عادة إلا فى المحطة عند السفر ، إذ هو خير أنيس فى وحدة القطار . فتراهم قد جعلوا فى كل محطة صغيرة أو كبيرة عربة يد صغيرة كتلك التى توضع عليها عندنا « البسطة » والفطائر والمأكولات . يعرضون عليها كل مستحدث من الكتب ، ويعهدون بها إلى صبى يمر بها على الرصيف أمام كل قطار مار . هنا فى مصر توجد فكرة عرض الكتب والمجلات فى المحطات ، ولكن الذى يؤسف له حقاً هو أن مصلحة السكة الحديدية المصرية قد منحت هذ الامتياز لرجل رومى لا يعرض غير الكتب والصحف الافرنجية ، لأن هذه المصلحة لا تنظر إلا إلى راحة المسافر الأجنبى والسائح

الافرنجى ، أما نشر ثقافتنا فى أنحاء بلادنا على يدها فهو مشروع لم تفكر بعد فيه .

لذلك سيظل الأدب والفكر وكل ما يتعلق بالتثقيف الذهنى والروحى فى بلدنا محصورا فى محيط محدود .

٣٧

يتساءل بعض النـاس كيف لا يستطيع أدباؤنا
أن يفتجوا انتاج أدباء الغرب ؟ أما أنا فأتساءل
كيف استطاع أدباؤنا أن ينتجوا اطلاقا ولمـاذا هم
ينتجون ؟ ان موقف ادبائنا اليوم ليدعو الى العجب .
انهم فى موقف لم يقفه أدب ولا أدباء فى عصـر من

العصور . ان المعروف فى كل عصر أن الأدب يرعاه دائما تشجيع طبقة من الطبقات . ففى عهد الارستقراطية كان فى كنف الملوك والخلفاء والأمراء والنبلاء . يتبارون فى حمايته . ويتسابقون فى اعلاء كلمته . وفى عهد الديمقراطية الحديثة وانعدام الأمية انتقل أمره الى يد الشعب المتعلم فهو الذى يثيب الأديب بالتهافت على اقتناء كتبه . وهو الذى يحوطه بمظاهر الاحتفال والتقدير . أما أدبنا اليوم ، فهو حائر كاليتيم بين أرستقراطية لا وجود لها . وان وجدت فلا شأن لها بأدب ولا أدباء ، وبين ديموقراطية اسمية فى شعوب لم يتم تعليمها ، فهى بعد لا تعنى بأدب ولا أدباء فانا نتحتج ونحن نعرف أن

انتاجنا لا يهم الحكام ولا المحكومين . وان ثمرات هذا الفكر الذى أضعنا من أجله كل حياتنا الجميلة لن يجنيها غير نفر قليل ممن ينظرون الى استشهادنا بعين الرثاء . نعم ان هو الا استشهاد ، هذا الأدب فى هذه البلاد . . . . لا شىء غير ذلك .
وانى قد ساءلت نفسى مرارا لمن أنشر كتبى ؟ فكان الجواب : انى انما أفعل من أجل أولئك التسعة أو العشرة من الأدباء الكرام الذين يفهمونني لأنهم يعانون عين الألم ، وينتظمون معى فى سلك العذاب ، ويدبون مثلى على أقلامهم فى تلك الحياة الطويلة الجرداء ، كأنها صحراء من الجليد لا يهب علينا فيها غير صقيع الاهمال من الشعب وأصحاب

السلطان . ولكننا مع ذلك نسير ، ونسير متجلدين ، أيدى بعضنا فى أيدى البعض كأننا منفيون فى مجاهل سيبيريا ... وما نحن فى الحقيقة أكثر من ذلك ... ما نحن الا منفيون فى مجـــاهل « فكرنا » الذى يجهله الناس ! !

٣٨

طالما صحت قائلا ان الدولة لا تنظر الى الأدب بعـين الجد . بل انه عندها شيء وهمى لا وجود له ولا حساب . وانى يوم ذكرت الدولة فى مقـام الأدب لم أرد منها تشريف الأدب بحمايتها ، فالأدب شريف بدونها وهى لا تستطيع له تشريفا ، انما هو

الذى يستطيع اذا اراد أن يشرفها وينوه بها . انما أردت من الدولة أن تنظم بوسائلها المادية أسواق الأدب المادية كما تنظم بقية المرافق الحيوية الأخرى حتى يتطهر من السماسرة والمستغلين . انى أردت من الدولة أن تصون نتاجنا من جشع الطامعين كما تصون مال الأفراد من عدوان اللصوص . فلقد كان كل عجبي أن الدولة لا تعترف بمصالح الأدباء اعترافها بمصالح الأفراد ، فهى تتركهم نهبا للناهبين حيث تقوم وتقعد اذا استبد تاجر بسوق الغلال ، أو استولى مراب على بعض المال !

وأقول اليوم إن الأدباء أنفسهم لا يريدون أن يحملوا الدولة على الايمان بحقيقة الأدب . بل إن

الأدباء وقد انكرتهم الدولة وانكرت بضاعتهم لم يفعلوا شيئا ولم يبدوا حراكا . بل إن الأمر قد بلغ من السوء حدا رأى فيه الأدباء نتاج اذهانهم يسقط فى التراب كما تسقط ثمار الشجرة الناضجة ، فلا يتحركون ولا يصيحون فى الناس : ان اقبلوا واجمعوا هذه الفاكهة وانتفعوا بها واطلبوا المزيد حتى تنشط الشجرة للأثمار ولا يجف ماؤها من الترك والاهمال . ومن العجب انهم يرون زبدة جهودهم تتلقفها ايدى الوسطاء من التجار الذين يتربصون بهم كما تتربص جوارح الطير بصغار العصافير فلا يحاولون المداولة فيما بينهم للخلاص من هذا المصير .

ان انعدام روح النظام بين الأدباء وتفرق شملهم

وانصرافهم عن النظر فيما يربطهم جميعا من مصالح
وما يعنيهم جميعـا من مسائل قـد فوت عليهم النفع
المادى والأدبى وجعلهم فئة لا خطر لها ولا وزن فى
نظر الدولة ، ولقمة باردة سـائغة فى فم التجـار
والوسطاء . تلك حال النـاضجين المعروفين من
أدبائنا ، أولئك الذين يتخذهم الناشئون من الأدباء
مطمحا لأنظارهم ، ويرون فيهم حلما ذهبيا جميلا ،
ويتحرقون عجلة وشوقاً لبلوغ مراتبهم ، ويتوسلون
اليهم أن يأخذوا بأيديهم ويقودوهم فى هذا الطريق...

واجب الأمانة يدعونى أن اصارح الناشئين :
اياكم أن تعقـدوا الآمال الكبار على الأدب فى
بلادنا اليوم ، اذا استمر الحـال على ما ترون . فما

أرض الأدب الآن سوى مستنقع مهمل ، حرام أن تلقى فيه بذور . وحسبكم تلك الزهرات القليـلة الوحشية التى تنبت من تلقاء نفسها على حواشيه فلم يأبه لها أحد ولم يعن بتعهدها وريها انسان !

٣٩

التجارب هى احدى وسائل «العلم» . ولعل ساعة «التجربة» هى أمتع لحظات «العـالم» . خطر لى مرة أن أقوم بتجربة غريبـة ممتعة . أن أضع امرأة فاتنة بين طائفة من ادبائنا المعروفين . ثم أنظر بعد ذلك ما يكون . انى على ثقـة انهم لن يناموا ليلتهم

قبل أن يسطر كل منهم على الورق أشياء قد تكون
من أجمل ما كتب . إن المرأة الجميلة فى مجلس
الأدب لها فعل السحر ، تستطيع بغير عصا أن
تخرج جواهر البيان من أفواه الأدباء . انا لا نكاد
نجد أدبا من الآداب العظيمة لم يرو لنا خبر المرأة فى
مجلس أهل الأدب . فاذا راجعنا الأدب العربى القديم
وجدنا ذكر الجوارى اللواتى كالشموس ، الضاربات
بالعود، اللاعبات بالنرد، الراويات للشعر . واذا نظرنا فى
آداب الغرب فى كل عصر وجدنا أخبار «الصالونات»
وما فيها من أقمار كلهن ذكاء وثقافة ودلال . نعم .
وهل يمر يوم على أديب من أدباء الغرب لا يجلس فيه
الى مائدة تزينها باقات النساء الجميلات . فيلبث ساعة
يتحدث الى ملكين رقيقين عن يمينه ويساره يقطر

الوحى من شفتيهما ثم يعود الى عزلتـه وكتبه وورقه ليمضى فى انتاجه الأدبى ، هذا الانتاج الذى نراه بعد ذلك آية من آيات الاعجاز . أما نحن فلا عرب بلغنا ولاغرب . ولا شموس حولنا ولا أقمار . ولكننا أدباء كالعناكب ننسج فى الظـلام ونعيش فى الجـدب والحرمان . ومع ذلك ننتج أحيانا . وهنـا حقا آية الاعجاز . ان أولئك الذين يتهمون أدبنا الحديث بالتقصير هم قوم ظالمون أو أغرار لا يبصرون . إن أدباءنا المعاصرين لجبابرة مستبسلون ومجاهدون مستشهدون لم يعرف مثلهم أدب من الآداب . فما من أدب فى التاريخ استطاع أن يظهر فى ظروف اجتمعت على خنقه كهذه الظروف . اللهم انا شهداء . اللهم انا شهداء . !!

٤٠

«قرأت لك في مقال انك تساعد ناشئة الادب ،
واشترطت لذلك شروطاً . وإني راض بها وإليك ما
يزيدك معرفة بي : إني قراض تذاكر . أجرى
ضئيل يبلغ ١٢٠ مليما في اليوم . واطلاعي محدود .
وذلك ناتج عن فقري . لا اقرأ غير بعض المجلات الأدبية

ولم اقرأ من الكتب غير بعض مؤلفات المنفلوطى وكتب أخرى . وكانت كتابتى جيدة فى الموضوعات الخيالية فقط . ولكنى منذ بدأت أتأثر بكم تغلبت طريقتكم علىّ . وأنا قوى الذاكرة وأميل إلى التفكير . وأستطيع أن أنفق فى شراء الكتب الأدبية ما يقرب من نصف الجنيه شهريا كما أنى أستطيع أن أختلس للأدب خمس ساعات يومياً .

لعل فى هذه الايضاحات ما يهون عليكم أمر مساعدتى على السير فى طريق الأدب الذى تصفونه بأنه وعر شائك . ولقد زاد إغرائى به ما نشرتموه أخيراً من تحذير للشبان من الاشتغال به فى هذا العصر . . . ! »

نشرت هذه الرسالة التى جاءتنى ضمن عشرات الرسائل فى هذا الموضوع لسبب واحد : هو عجبي وإعجابى بقارىء تلك حاله . يبذل عن طيب خاطر سدس مرتبه الشهرى وقسطا وافرا من وقته فى سبيل الأدب . إنه يذكرنى بقراء أوربا . أولئك الذين يخصصون جزءا ثابتا فى ميزانياتهم للكتب ووقتا منتظما معلوما للقراءة . مثل هؤلاء القراء هم الذين قامت على أكتافهم نهضات أوروبا الأدبية . وهم الذين ظهر من بينهم أدباء أوربا العظام . فان الاديب لا يتخرج فى مدرسة . إنما ينبت فى حقل الكتب والمطالعات الشخصية . وفى الأدب الفرنسى الحديث مثل صارخ لأديب من أصل بلقانى هو : « پاناييت

استراتى » لم يكن يعرف الفرنسيـة ولكنه غرق
سنوات فى المطـالعة وضن بـاله القليل على الطعـام
وأنفقه فى شراء كتب جعل يلتهم صفحاتها التهاما .
وإذا هو فى يوم من الأيام قـد استطاع الكتابة
بالفرنسيـة وإذا هو كاتب معروف يربح من كتبـه
الألوف . اعطونى إذن ألفين من طرازهذا القارىء
وأنا أضمن لمصر نهضـة أدبيـة رائعـة وأدباء جددا
يسيرون فى طريق المجد .

٤١

ينبغى أن نحترم أولئك الذين يحترمون الفكر .

رأيت هذا الأسبوع واحدا من هؤلاء . هو طبيب فاضل ، طلبنى فى منزلى بالتليفون مرات ، ثم زارنى فى مكتبى مرتين دون أن يظفر بلقائى . ولم ييأس . فحضر الثالثة فوجدنى وأخبرنى انه يحتفظ بكل

كتبى الا كتابا واحدا ، بحث عنه كثيرا فلم يجده .
وهو يدفع فيه الآن أبهظ ثمن حتى لا تنقص مجموعته
المجلدة افخر تجليد . فلم يؤثر فى نفسى أيضا هذا
الكلام ، وأحلته فى اختصار الى مكتبة باعته النسخة
بضعف ثمنها . واذا بخطاب شكر واعتراف بالجميل
يصلنى من هذا الرجل فى اليوم التالى . شكر على
ماذا ؟ لست أدرى . ولكنى تأملت قليلا فخجلت .
ان هذا الرجل يحترم الفكر فى ذاته وينفق فى سبيله
الجهد والمال . ان هذا الرجل يشكرنى وقد دفع ثمن
النسخة ، بينما أرانى قد أهديت كتبى تورطا أو حمقا
الى أناس لم يعنوا حتى بارسال بطاقة شكر .
وتذكرت أولئك الذين لا يفعلون شيئا الا أن

ينتظروا أن نهـدى اليهم كتبنا ليقرأوها متفضلين أو لا يقرأوها مهملين . مثـل هؤلاء ينبغى أن نحتقرهم مهما تكن مكانتهم . إن الفكر ما ارتفـع قدره يوما الا على أيدى رجال من طراز ذلك الطبيب الفاضل . وما صغر شأنه الا على أيدى هذه المخلوقات التى تبذل مالها من أجل كأس خمر وتضن به على كتـاب مفعم بالحـكمة . ولقـد سرت عدوى هـذا « التسول » الأدبى الى الهيئات العلمية والثقـافية . فقد جاءنى كذلك هذا الاسبوع خطاب من دار الكتب الحـكومية تطلب نسخا من كتـابى الجديد هدية أو «صدقة» ! وقد علمت أن الدار لها « مال » مخصص لاقتناء الكتب . ولكن ماذا نقول فى زمن

هانت فيه قيمة الفكر حتى بين الهيئات العاميـة الرسمية . الا فليعلم النـاس منذ اليوم انى سـأبطل عادة « الهدايا » ابتداء من كتابى القـادم . وانى لن أقدم جهـدى الا لقرائى المخلصين الذين يقدمون الىّ جهدهم وعنـايتهم ومالهم . أما الآخرون فلن أعترف لهم بوجود . فانى منذ اليوم لن احترم الا من يحترم فكرى ويسعى اليه ويبذل فيه ما يستطيع !!

٤٢

جاءنى بريد « بيروت » هـذا الأسبوع بمجـلة أدبية فاضلة ما كدت ألق نظرة على صدرها حتى وجدته زاخرا بسب مصر ورجال الأدب فى مصر . مع استنكار « لامتداد الأدب المصرى والثقافة المصرية فى أجواء البلاد العربية » . وبعد أن نفى

الكاتب الكريم عن مؤلفات المصريين كل قيمة فى بضعة أسطر ، ختم الكلام بقوله : « إننى أنكر هذه الثقافة اللقيطة ويعز علىّ كلبنانى عربى أن تؤخذ بلادى بالتدجيل وتخدع بالدعايات المجانية أو المأجورة » .

ما هو الدافع إلى هذا القول ؟ أهو نقد الجهود فى ذاتها حتى نستيقظ قليلا ونرى أن قراءنا فى البلاد الشقيقة قد بدأوا يسأمون إنتاجنا ، ويستحثوننا على تجديد طرائقنا وتعزيز وسائلنا ، حتى يظفروا ويظفر الأدب العربى الحديث بالنهضة الباهرة المنشودة ؟ إن كان هذا هو قصد المجلة والكاتب فهو قصد نبيل ، لا يسع مصر وكتابها إلا أن

يبعثوا إليهما من أجله أصدق عبارات الشكر .

أما إذا كان الباعث هو مجرد الغضب لأن مصر بالذات هى التى تنبعث منها أشعة الثقافة العربية الحديثة فى الوقت الحاضر ، فتلك عاطفة لا تشرف صاحبها ولا نحب نحن أن نسلم بوجودها ، خصوصاً فى بلد تربطنا به أواصر النسب .

ومع ذلك فهذا أمر لا ينبغى أن يكون موضع جدال ، لأنه أمر يتعلق بالواقع .

فاذا كان الواقع هو أن نسيم الثقافة يهب علينا اليوم من جبال لبنان ، فلا أحبّ إلينا نحن المصريين من هذا . وهو خير لنا وأشرف من أن يهب علينا من جبال الألب .

غير أن الذى يؤلمنى هو أننـا معشـر الشرقيين يكبر علينا دائما أن نرى الفضل يأتينـا من شرقى ، ولا نغضب بل نفخر إذ يأتينا الفخر من غربى !

ولأرفع صوتى صريحا : إن الشرق لن تقوم له قائمة إذا بقيت فيه ذرة من روح التنـابذ والتحاسد . فان لم يسعفنا التعاون والتساند فلنوقن بسقوطنا العاجل بين فكى الغرب النهم .

٤٣

هل ينتظر اللغة العربية والأدب العربى الحديث فى مصر مستقبل سعيد ؟ لقد بدرت البوادر بشروع بعض الأجانب فى الاقبال على تعلم اللغة العربية والاهتمام بمعرفة كتاب مصر البارزين. من رأيى أن الحياة لن تدب فى هذه اللغة وهذا

الأدب إلا إذا ظفر بقراء كثيرين من هذا العنصر النشط المثقف . وإنى لأتخيل اليوم الذى يتم فيه ضم أجانب مصر أو أغلبهم إلى حظيرة قرائنا فى لغتنا . هؤلاء الأجانب الذين يعدون القراءة غذاء ذهنيا له ضرورته فى حياتهم اليومية ، شأنه فى ذلك شأن الحاجات الأولية ؛ هؤلاء الآلاف القليلة من الأجانب الذين استطاعوا أن يكفوا لرواج حوانيت الكتب الأجنبية التى لا يخلو منها شارع كبير فى أى مدينة كبيرة من مدن هذه الدولة العربية اللغة ؛ هؤلاء النفر الذين استطاعوا أن ينشئوا لأنفسهم صحفاً ومجلات بلغاتهم المختلفة وأن يضمنوا لها حياة وازدهاراً . ترى ما الذى يحدث لو أن هؤلاء فهموا

أخيراً أن استقلال مصر وسيادتها معناه سيادة لغتها وآدابها وفنونها ، على الأقل فوق أرضها وفى حدود بلادها ، وأن الخير والكياسة والمصلحة تقضى عليهم أن يكفوا عن تجاهل لغة الدولة وأن يعيشوا بيننا كما يعيش كل أجنبى فى دولة محترمة ، يعنى بتعلم لغتها والاطلاع على أدبها ومسايرة الحياة الذهنية والاجتماعية فيها ؟ لا ريب عندى ، لو وقع ذلك الحدث ، فى أن أدبنا سيتغير ويتطور فى مثل لمح البصر ، تطورات تثير الدهشة والعجب . ليس فقط لأن نتاج فكرنا سيرتفع شأنه فى السوق ، بل لأنه سيرتفع فى ذاته من حيث الصنف والقيمة . فان القارىء الجيد يخلق الكاتب الجيد ، و « الزبون »

المحترم يوجد الحانوت « المحترم » .

لكن . . . كيف نحمل الأجانب على ارتياد « حانوتنا » الفكرى وأكثرهم قد استقرت فى نفسه بغير علة فكرة الاستخفاف بلغتنا ؟ ما هى الوسائل التى ينبغى لنا أن نتخذها لنزع هذه الفكرة عنهم وترغيبهم فى بضاعتنا ؟ هذا سؤال مطروح على القراء المثقفين .

٤٤

قرأت بين الرسـائل التى جاءتنى فى موضـوع نشر اللغة العربية بين الأجانب رسـالة لم أر بدآ من إثباتها هنا ، لأنهـا قد عرضت فى فقرات سبع ، مسائل ينبغى أن توضع موضع التفـكير . قال صاحب هذه الرسالة : « كى ننجح فى اجتذاب الأجانب إلى

« حانوتنا » الفكرى يجب أن نتبع ما يأتى :

أولا — أن يتكلم المصريون جميعا اللغة العربية فى كل المناسبات ، وألا يسمحوا لأنفسهم ما داموا يعيشون فى مصر بالتكلم بأية لغة أخرى مهما ترتب على ذلك من نتائج .

ثانيا — أن تكون جميع مكاتباتنا باللغة العربية ، وأن نضطر الأجانب إلى قبول الكتابة إليهم بلغتنا .

ثالثا — أن يكون التعليم فى جميع المدارس الأجنبية فى مصر باللغة العربية .

رابعا — أن يوطد الكاتب المصرى عزمه على أن يكتب للعالم . إذ على الرغم من أن ما يكتبه لن يخرج عن حدود الأمم الشرقية الناطقة بالضاد ، إلا

أن مصر بالذات هى شبه عالم صغير فيها من كل الأمم وكل الجنسيات .

خامسا — العناية بأسلوب الكتابة ، والارتقاء إلى السلاسة مع السهولة ، وأن يجتهد كل كاتب فى الكشف عن نفسه وغرضه فى وضوح وصفاء .

سادسا — أن تعرض المطبوعات بأثمان معتدلة لاغراء الأجانب بقراءتها .

سابعا — أن تكون هناك رقابة على المؤلفات جميعا فلا ينشر منها إلا ما يستحق النشر ، حتى لا نكلف الأجانب قراءة سخافاتنا المزرية .

تلك مقترحات صاحب الرسالة . وهى من غير شك كفيلة بتحقيق الغرض . لكن المعضلة فى

التنفيذ ، فأن بعضها لا يمكن أن يقوم به غير حكومة قوية الشوكة مرهوبة الجانب ، وبعضها يقع حمله على كواهل الأدباء .

وأعجبنى قول هذا الأديب : إن الكاتب المصرى ينبغى أولا أن يوطن عزمه على أن يكتب للعالم كله . ولعل هنا مفتاح القضية كلها ، فهل فى مصر الآن أدباء يكتبون للعالم كله ؟ ذاك موضوع يحتاج فى بحثه إلى صفحات طوال .

٤٥

« ... لم يتيسر لى قراءة كل كتبك . إنما الذى
قرأته لك هو مقـالات وقصص ومسـاجلات فى
الصحف والمجلات ، ومع أن كل آرائك حرة وجريئة
إلا أن رأيا واحدا هو الذى ملك شعورى وكيـانى :
(إن من ملك قلبـاً حاراً ولسـاناً حراً فهو الذى

يستطيع أن يسود العالم) . سيدى : إن قلبي لحار وإن
لسانى لحر وبهاتين الوسيلتين يعظم أملى فى المستقبل
إنى أعشق الجمال وأحب الأدب الرفيع ولكنهم
يريدوننى أن أكون معلماً باحدى المدارس الألزامية .
إن جو القرية يكاد يخنقنى . أريد أن أؤدى رسالتى
فى الحياة ، وهى رسالة الكاتب الموهوب ، لا أن
أعيش على هامش الحياة ! إنه ليسرنى أنى استطعت
إسماعك صوتى . فان رأيت يا سيدى أن هذه النواة
أهل للحياة فتعهدها بالغرس والرى . لى من حسن
الأمل فيك ما يجعلنى أطمئن إلى أنك لن ترمى
برسالتى فى سلة المهملات ... »

قبل كل شىء أحب أن أقول لصاحب هذه

الرسالة أن يحسن ظنه بحياته . فلئن كان هنالك
إنسان يعيش على هامش الحياة ، فهو أنا صاحب هذا
البرج القصى " . إن جو القرية لا يمكن أن يكون خانقاً
للقلب الشاعر . وإن مهنة التعليم والعمل على تكوين
نفوس نبيلة ، ونفخ روح الجمال فى نشء ساذج ،
وإيقاظ عيون صغيرة على حسن الطبيعة ، كل هذا
خلق فنى فى ذاته . ولكننا لا نريد أن نرى الخلق
إلا فى مقال يكتب ، ولا المجد إلا فى هراء ينشر .
هنالك شعراء عظام ما فارقوا قراهم قط وما تركوا
صناعاتهم الصغيرة قط . إن القلب الحار يسبغ الخير
والجمال على ما حوله . ولو كان لصاحب هذه الرسالة
قلب حار حقيقة لظهر لهذا أثر فى قريته ومدرسته

أولا ، ثم فى مادة نفسه ثانياً . فالقلب الحار يحتاج إلى
وقود ليشع ولا يخمد ، وأيسر الوقود الكتب .
وصاحب الرسالة لا يقرأ كتبا ولكنه يطالع
مطالعات سطحية سريعة ناقصة . كلا . إن
« القلب الحار » ليس كلمة تقال ! . . .

٤٦

ليس لى وحى . فان آلهـة الفن لم يشرفونى
بارسـال ذلك الملاك ذى الأجنحة البيضاء ، يبعثونه
إلىَّ فى لحظة من اللحظات . انما الوحى الذى أعرفه
هو انكباب على المكتب سبع سـاعات فى عمل
متصل . فاذا لم يأت وحى فى خلال هـذه الساعات

الطويلة . فانه لن يأتى مطلقا . على أن الصعوبة عندى هى فى ارغام نفسى على الجلوس الى المكتب وتهيئة ذلك الجو العبق برائحة الخلق والابداع ، المشبع بروح التناسق والجمال . ذلك الجو الذى يمكن أن يخرج فيه شىء جميل . ولى فى ذلك طريقتى التى تناسبنى . وهى أن أدير « الجراموفون » واستمع الى الطفل الألهى « موزار » ساعة من الزمن أو ساعتين ، فاذا يدى فى غالب الأحيان تجرى بعد ذلك على الورق . وإذا «الجراموفون» ، وهو يقف من تلقاء نفسه ، قد صمت منذ زمن طويل دون أن أشعر به ، وإذا أنا محاط بصمت عميق لا يقطعه غالبا الا رنين الساعة الكبيرة تدق دقات أعرف منها انى غبت عن

الوجود منكبا على العمل أكثر من خمس ساعات .
والويل كل الويل لمن كان بينه وبينى ميعاد خلال
ذلك الوقت . فان كانت ثقتـه فى دقة مواعيدى ما
زالت قائمـــة وانتظرنى ، فانه يجـدنى قد أبطأت
عليه لا بأرباع الساعات ولا بأنصافها . بل . . . . .

٤٧

رأيت فى نومى البارحة رؤيا أفزعتنى : انى تزوجت . ولم تبين الرؤيا كيف تم ذلك . ولكنى وجدت نفسى على فرش وثيرة من الدمقس الأزرق فى حجرة جميلة ذات سجف من حرير متألق متماوج الألوان كرقبة اليمامة . وسمعت حولى من يقول :

— هذا جهازها .

— جهاز من ؟

— عروسك .

— ومن الذى زوجنى ؟ ومن العروس ؟

— من بيت حسب ونسب . ذات جمال ومال وحلاوة لسان . وهى فرصة كان لا بد من انتهازها . وقد علت بك السن وكاد يفوت أوان الزواج .

— ومن انتهز لى الفرصة ؟

— أولاد الحلال ، من قرائك المعجبين الذين يهتمون لأمرك .

— شىء لطيف . وهؤلاء القراء المعجبون الذين زوجونى ، كيف فعلوا ذلك ، وأين وجدوا

لى هذه العروس . . .

– دعك من هذا الفضول . لا شأن لك بكل هذه التفاصيل . ولا تشغل بالك الا بما أنت فيه من نعيم مقيم .

– والعروس ، أسبق لى رؤيتها ؟

– لا . ستراها الليلة .

– عجباً . وكيف يزوجوننى ممن لم أرها . ونحن فى القرن العشرين ، أيها الناس . إن هذا جاوز الحدود . . . .

– هى أيضا لم ترك .

– اقرأت كتبى ؟

– لو كانت قرأت كتبك لما تزوجتك .

– وكيف اذن أقنعوها ؟

— قالوا لها عنك كل شيء الا الأدب والتأليف . فقد وجدوا من الحكمة واصالة الرأى كتمان ذلك عنها الى أن يتم العقد ويتعذر النقض .

وفتحت عيني فى الصباح وأنا أقول : «اللهم أحمدك على استيقاظى قبل تمام العقد ، وقبل مواجهة الفتاة بذلك العيب الذى لا يغتفر. إن المرأة لن تتغير . ان شئون الفكر عندها شيء مخيف . وكم من شعراء وأدباء أخفوا على نسائهم كنوز عقولهم ، ولم يظهروا لهن الا كما يردنهن : رجالا مبتذلين كبقية الرجال !

٤٨

أترى الأخفاق فى الحب هو الذى يثمر أحيانا تلك المخلوقات الفنية التى ربحت من ورائها الأنسانية ؟ يحلو لى دائما أن أتخيل ان هنالك ملاكا حارساً أو سجانا قد وكل به أمر الفنان أو المفكر أو الأديب ، يسلط عليه « الحب » كلما وجد ان معينه قد نضب ،

ولا يأذن له بالنجاح فى هذا الحب الا بمقدار ، حتى
لا يشغل به عن الخلق والانتاج . ولقد أمعنت فى
هذا الخيال حتى اعتقدت ان هذا الملاك حقيقة واقعة
فكنت اناديه أحيانا وأتوسل اليه أن : « ارحمنى ولا
تضن علىّ وكن كريما ! » . فكان يجيب قائلا كالمخاطب
لنفسه : « لن يخدعنى مثلك . انى أعرفك وأفهمك .
ان الحب لو ابتسم لك قليـلا لجريت وراءه ورميت
فى وجوهنـا بالـكتب والقلم والورق ! » . وهـكذا
اعتدت أن أرضى بقسمتى ونصيبى . وأصبحت أرى
أن كل ما قسم لى من الحب هو الخروج منه بكتاب
أو كتابين أعرضهما على « حضرة » الملاك السجان .
فأنا إذن فى واقع الأمر ، لا فرق بينى وبين تـلك

الطيور والببغاوات التى يحبسونها فى أقفاص حديقة الحيوان ، يقدمون اليهـا قليلا من « السكر » أو « الحب » بمقدار لا يلهى أفواهها عن الكلام والغناء والثرثرة التى يطلبها الزوار والمستمعون .

فهل نطمع نحن « الببغاوات الآدمية » فى أن يلقى الينا من وراء القضبان باقة سكر دفعة واحدة « نجرشها » بأفواهنا دون أن يطلب الينا الغناء أو البكاء . ؟!.

٤٩

منذ عشرة أعوام عقدت معـاهدة على جبل « أولمب » بين « أبولون » و « كوبيدون » تتعلـق بى . ولا أعرف على وجه التفصيل نصـوص تلك المعاهدة . فلقد كانت معاهدة سرية . ولكن ، يخيـــــل إلى أن « آله الفن » أراد أن يعتبرنى من

« منـاطق نفوذه » فحرم على آله « الحب » أن يلقى سهما واحدا من قوسه الذهبية الى هذه المنطقة . وقد تبين لى فى مواقف كثيرة من حياتى أن آله «الحب» قد احترم حقا هذه المعاهدة وفى أحيان أخرى رأيت كأن « كوبيدون » ينظر الى « قلبى » نظرات ملؤها المطامع الاستعمارية • وانه يتحين الفرص والظروف . وآله الفن كما هو معلوم ، ينادى دائما بالحرية اذ لا فن بغير حرية مكفولة فى كل زمان • وآله الحب ينزع الى السلطـة والسيطرة والعنـف والتقييـد بالسلاسل والأغلال • ولست أدرى لماذا يذكرنى هذا الصراع بينهما بالصراع القائم اليوم بين «انجلترا» و « ايطاليا » . فانجلترا بلد الديموقراطيـة والحرية ،

وايطـاليا رمز الدكتاتورية والسلطة المطلقة . ولقـد وقع حديثـا نزاع بين الطرفين ، فأغفلت المعـاهدة والقيت السهام ، وأعلن الدكتاتور أنه افتتح المنطقة « الحرام » . فلم يعترف له منـافسه بهـذا الفتح .

وسـارت الأيام سيرها وأنا راض مطمئن اطمئنـان « النجاشى » المسكين . الى أن قرأت فى البريد الأخير ان انجلترا ستحمل العـالم على الاعتراف بالفتـح الايطـالى « للحبشة » . فوضعت يدى على « قلبى » وأدركت أن « الحرية » الجميلة ليست الا حملا ضعيفا تنتظره دائمـا أنيـاب الذئاب . وأن « المعاهدات » ليست الا « محطات » انتظار لساعات الوثوب !!

٥٠

أذاع المتحف المصرى حديثاً فى أنحـاء العالم من خلال بوقين أحدهما من الفضـة ، والآخر من النحاس ، هما من مخلفات توت عنخ آمون . وقـد كانت هذه الاذاعة أول صوت يخرج منهما منذ ثلاثة آلاف عام . قرأت هـذا الخبر فى الصحف كما قرأه

الناس . وجاء الليل فتخيلت هذين البوقين قد أعيدا إلى مكانهما بالمتحف ، وقد سكنت الأصوات ، ونامت الكائنات ، فاذا هما ينهضان مستويين كأنهما ثعبانان ، وجعلا يتحادثان :

البوق الفضى — عجباً ! ما هذه اللغة التى خرجت من فمى اليوم ؟

البوق النحاسى — إنها لغة غير مفهومة لعلها لغة بعض العبيد أو الأسرى الذين نأتى بهم إلى أرضنا من آن لآن .

البوق الفضى — نعم . إنها ليست لغة توت عنخ آمون ! لكن كيف سمح الحراس للعبيد والأسرى أن يحملونا بأيديهم ، ويدنسوا أفواهنا برطاناتهم !

البوق النحاسى ـ هذا ما يثير دهشتى .

البوق الفضى ـ يا للعار ! فمى الفضى يخرج منه مثل هذه الرطانة ! هذا لم يحدث لى قط قبل الآن !

البوق النحاسى ـ وأنا لم يقع لى مثل هـذا قبل اليوم قط !

البوق الفضى ـ وبعد . أنذعن لهذه الكارثة ؟!

البوق النحاسى ـ لا . لا ينبغى أن نذعن .

البوق الفضى ـ وماذا نستطيع أن نفعل ؟

البوق النحاسى ـ نستطيع أن نصيح وأن نرفع أصواتنـا فى أرجاء المكان ساخطين متضرعين ، طالبين صيانة حرمتنا وكرامتنا . فلا ينفخ فينا بعد الآن نافخ بغير لغة توت عنخ آمون . فمن أجلها

صنعنا ووجدنا . فلتخرس أفواهنا إلى أبد الآبدين ، إذا نطقت بغير لغة توت عنخ آمون !

البوق الفضى ـ وإذا أجبرنا على النطق بغيرها ؟

البوق النحاسى ـ حقت اللعنة على من يجبرنا على ذلك !

وذهب من أمام عينى شبح البوقين . وثبت إلى نفسى وأنا أقول : « أهى لعنة أخرى كلعنة المومياء ، ما زال أمرها خافياً على العلماء ! »

٥١

يذكرون أن كاتبا شرقيا راعه افتقار بلاده إلى ما عند الغرب من أسباب القوة فقال :— «أنا الشرق عندى فلسفات فمن يبيعنى بها طائرات» !

هذه الكلمة خطأ كلها . فليس عند الشرق اليوم فلسفات . وإن الشرق يوم كانت عنده الفلسفات

كانت عنده أيضا كل ضروب القوة المعروفة فى تلك العهود . بل ان الفلسفات يوم كانت موجودة فى أرضه فكر فى اختراع الطائرات : «عباس بن فرناس» وان هـذه الفلسفات يوم انتقلت الى الغرب انتقلت معها بذرة روح الاختراع التى أنبتت الطائرات . . . ان دماغ المهندس الذى يصنع الطائرة والغواصة والدبابة هو دماغ قـد كونتـه الفلسفات والآداب والفنون ، وزودته بملكات التفكير والتصور والخيال أما الذين يظنون أن هـذه المخترعات تظهر كالنبـات البرى فى الأمم دون أن تسبقها نهضـات فكرية فى مختلف الفنون فاولئك هم الواهمون . . . إن الفكر هو أساس القوة . وإن الأمم التى تتباهى اليوم بالقوة المادية وحدها ، انما قامت فيهـا هذه القوة ذاتها على

دعائم الفكر والمفكرين من أمثال افلاطون ونيوتن وجوته وشيلر ونيتشه وفاجنر ... الخ . فهم الذين صنعوا «القوة المفكرة» : ذلك «الدينامو» الذى أساء الطغاة استعماله فحولوه من أداة نعمة للأنسانية الى أداة نقمة على البشر .

فالى الذين بهرتهم القوة الوحشيـة فى سلطانهـا الحاضر ، فأنكروا سريعا عناصر الحضارة الحقيقية وازدروا الأمم التى تتفانى فى تجميل الحيـاة بالفنون والآداب ، أسوق هذه الكلمة وأصيح : « تكلمى دائما يا الهة الفكر والشعر ، فأن سلطانك هو الباقى . فمن كلمات فيك يصنع جوهر الحضارات ، وما دمت أنت فى الوجود ، فأن الحيـاة تستحق الحياة ، والأنسان يستحق أن يسمى انسانا . . »

٥٢

نعم هى بالذات تضحية يبـذلها الأديب الحر ، إذ يضـع قلمـه الرفيـع « مؤقتـا » فى خدمة الوطن على صورة قد يأباها الأدب الحرّ الرفيع . هكذا فعل « جيرودو » و « موروا » و « دوهاميل » وأغلب أعضاء المجمع اللغوى الفرنسى يوم رأوا داعى الوطن

يدعوهم الى الكفاح . فانبثوا وتوزعوا على الصحف والراديو يجاهدون فى تقوية روح الشعب بما فى اقلامهم من مداد ، وبما فى شرايينهم من دم الرجولة والشرف ... كتبوا ونشروا وأذاعوا ، لا بحوثا ودروسا فى مشكلات السياسة والاقتصاد والاجتماع ، ولكن صيحات حارة مدوية ، تدعم ايمان الشعب الذى نخرت فيه ديدان قوى خفية ، وهزت أركانه همسات أخرى مسمومة ، قطرتها فى نفوسه الدعاية الأجنبية .

كل هذا يجدر بنا أن نعلمه حق العلم . فأن أولئك الكتاب العظام كانوا يدركون حين جندوا أنفسهم فى الصحافة والأذاعة ، أنهم يضحون بأدبهم

الحر وتفكيرهم الخالص وآرائهم الشخصية ، وأنهم
ينشرون صفحات مما يسميه بعض الأدباء والنقاد أدبا
رخيصا سهلا يسيرا ، موقنين أن هذا الأنتاج السريع
الزهيد هو فى عرف « الأدب الحق » عمل ضائع لن
يحسب لهم فى سجل الأعمال الأدبية الباقية ...
أما أن حركتهم تلك أفلحت أو لم تفلح فهذا ليس ذنبهم
ولا شأنهم . فحسبهم أن قد أدوا واجبهم وضحوا أبلغ
تضحية تفرض على أديب . وبعد ، فما كان أيسر لى
الآن من الصمت بين جدران برجى العاجى .
ولكنى ظننت واجبنا نحن رجال القلم ، أن نصنع
الساعة شيئا لهذا البلد . وما دمنا لا نملك من صحة
الجسم ما نبذل معه دمنا ، فلنبذل على الأقل مداد

أقلامنا وحرارة أفئدتنا .

فهل نبخل ببذل هذه الأشياء نزولا على ارادة الفلسفة العليا التي تقضي بالسكوت ؟

٥٣

أبصرت اليوم من نافذة برجى « شهر يوليو »
مقبلا بخطى سريعة وهو متدثر برداء أحمر كأنه قطع
اللهب ، وقد تصبب من جبينه العرق ، وهو يقرع
باب برجى ويصيح :

— أيها الغافل عن جسمه ، القابع بين جدران

سجنه . انطلق قليلا إلى نسيم البحار وهواء الجبال ، وأرح نفسك واسترح من نفسك !

فسمع الجواب من أعماق نفسى :

— وكيف يستريح من هذه النفس وهى تمتطى وجوده امتطاء ؟

فقال « الشهر » :

— أو نذعن لهذا الفارس القاسى حتى يسحق المطية سحقاً ؟ !

فقالت النفس :

— أهى رحمة منك بالمطية أم أنك تريد أن تأخذها منى لنفسك أيها الشهر اللعين !

— إنها ستجد عندى الراحة والنعيم . وسأقدم لها « علفاً » من فاكهة الجبال الغضة وزهر الغابات

الجميل ونسيم صيفى العليل ... أما أنت فماذا تجد عندك ؟ إنك لن تقدمى إلى هذه المطية النحيلة غير « علف » من الحبر والورق والسهاد المضنى والعمل المرهق والتفكير الطويل !

— سأعطيها النور الذى يضيء لها السبيل !

— لا تخدعيها بهذه الكلمات . ومع ذلك فان عينيها فى حاجة كذلك إلى الراحة والبعد عن النور . أقصى عن وجهها شهراً واحداً ذلك المصباح الذى لزمها طول الشهور !

— إنها لا تستطيع السير خطوة بغير ذلك المصباح .

— أقسم لك أن الزيت قد نفد من هذا

المصباح . دعيني أذهب بهـــا إلى حيث تملؤه من جديد زيتاً خالصاً نقياً ، يرسل الضوء وهاجاً قوياً ، لهـا وللآخرين من القراء والمريدين ، طول عامها القادم ... آمين !

